

عجائب القرآن

للأمام فخر الدين محمد بن عيسى بن الحسين الرازي
٦٠٦ هجرية

ضبطه ورتب فصوله وصححه
جماعة من العلماء بإشراف الناشر

دار الكتب العلمية

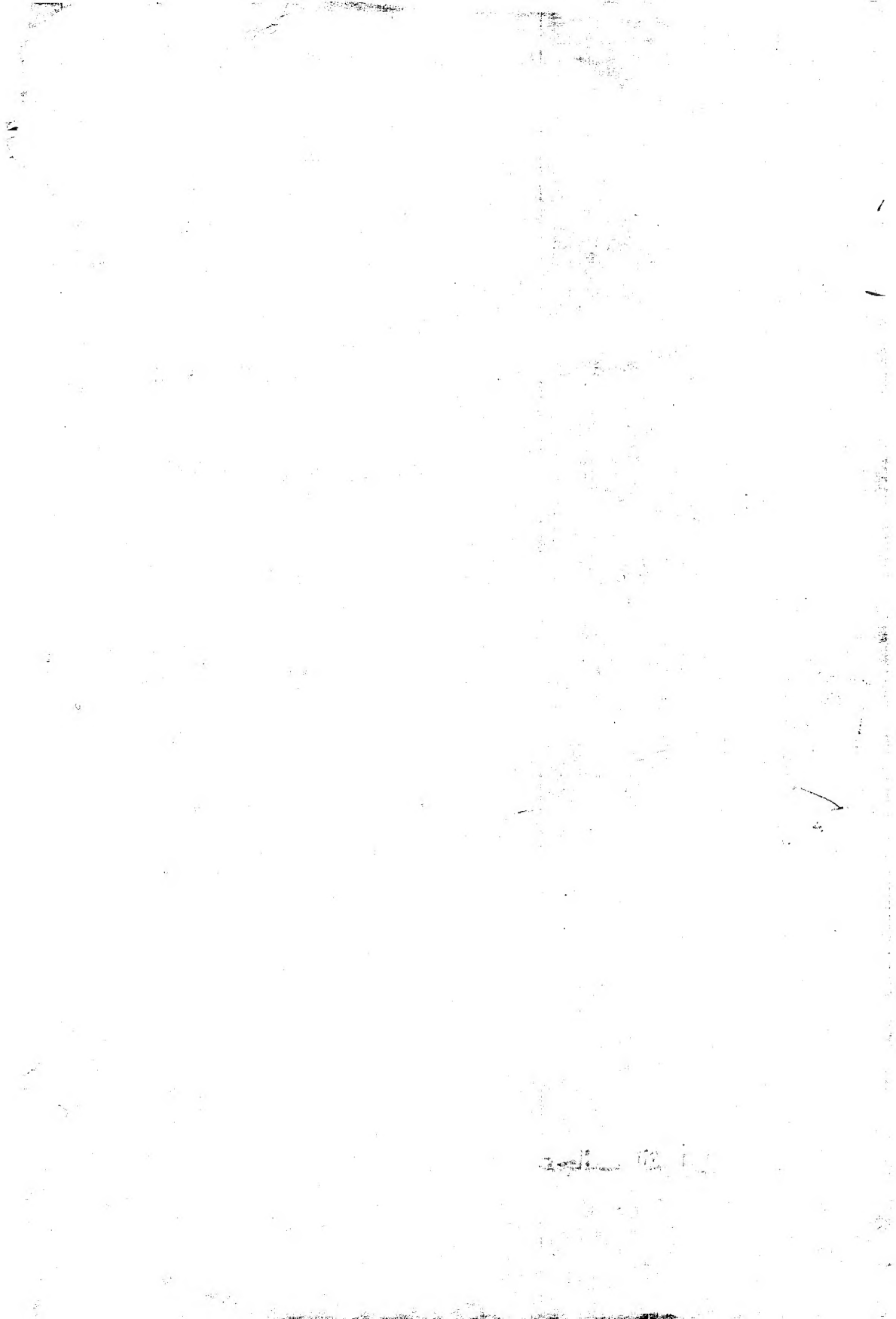
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى
١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية - بيروت

يطلب من : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص ب ٩٤٢٤ - ١١ - تلکس : NASHER 41245 Le

عجائب القرآن



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الاول

في

أسرار كلمة لا إله إلا الله

قال الله سبحانه وتعالى لرسوله : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ واستغفرُ لذنبكَ وللمؤمنينَ والمؤمناتِ ﴾ ^(١) .

اعلم أن الله تعالى قدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والسبب فيه : أن معرفة التوحيد إشارة إلى علم الأصول ، والاشتغال بالاستغفار إشارة إلى علم الفروع ، والأصل يجب تقديمه على الفرع ، فإنه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع القيام بطاعته وخدمته . وهذه الدقيقة معتبرة في آيات كثيرة .

أولها : أن إبراهيم عليه السلام لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال : ﴿ رب هبْ لي حكماً والحقني بالصالحين ﴾ ^(٢) .
فقوله : « هب لي حكماً » إشارة إلى استكمال القوة النظرية بمعرفة حقائق الأشياء ، وقوله « والحقني بالصالحين » إشارة إلى استكمال القوة العلمية ^(٣) بالاجتناب عن طرقي الإفراط والتضييق . فقدم العلم على العمل .

وثانيها : أنه تعالى لما أوحى إلى موسى عليه السلام راعى هذا الترتيب فقال : ﴿ وأنا أخبرتكَ فاستمعْ لما يُوحى . إنني أنا اللَّهُ لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاةَ لذكري ﴾ ^(٤) . فقوله : « لا إله إلا

(١) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ٨٣ .

(٣) لعل الأصح (القوة العملية) لما يقتضيه السرد .

(٤) سورة طه ، الآية : ١٣ - ١٤ .

أنا « إشارة إلى علم الأصول . وقوله : « فأعبدني » إشارة إلى علم الفروع .

وثالثها : أن عيسى عليه السلام لما أنطقه الله تعالى في وقت الطفولية قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ ^(١) . فقوله : « إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ » إشارة إلى علم الأصول ، وقوله « آتَانِيَ الْكِتَابَ » إشارة إلى علم الفروع ، فإن احتياجه إلى الكتاب إنما يكون في معرفة الأحكام والشرائع ، لا في معرفة ذات الله تعالى وصفاته .

ورابعها : الآية التي نحن فيها ^(٢) .

ولا نزاع في أن أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام هؤلاء الأربعة ، فلما ثبت أن الله تعالى قدّم الأمر بمعرفة الأصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الأنبياء المكرمين ، ثبت أن الحق الصحيح الصريح ليس إلا ذلك . وما يؤكد ذلك وجوه أخرى .

* * *

الوجه الأول :-

إن أكثر المفسرين أجمعوا على أن أول آية أنزلها الله تعالى على محمد ﷺ هي قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ^(٣) . وهذه الآيات مشتملة على دلائل التوحيد . وذلك لأن أظهر الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم : تولد الإنسان من النطفة . ثم إنه تعالى نبه في هذه الآيات على لطيفة مخفية ، ولا يتأتى شرحها إلا في معرض السؤال والجواب .

فإن قال قائل : لا بد من رعاية النظم بين أجزاء الكلام ، وههنا

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٠ .
(٢) سورة العلق ، الآيات : ١ - ٥ .

(٣) سورة مريم ، الآية : ٣٠ .
(٢) وهي الآية ١٩ من سورة محمد .

ذكر أنه تعالى يولد الانسان من النطفة فقال : ﴿الذي خلق . خلق الانسان من علق﴾ . ثم ذكر بعده أنه ﴿علم الانسان ما لم يعلم﴾ . فأي مناسبة بين هذين الأمرين ؟ .

والجواب : أن أخس مراتب الإنسان وأدناها : العلقه ، وذلك لأنه يستقذرها كل أحد . وأعلى المراتب وأشرفها : كون الانسان عالماً محيطاً بحقائق الأشياء ، كأنه قال : عبدي ، تأمل إلى أول حالك حين كنت علقه ، وهي أخس الأشياء ، وإلى آخر حالك حين صرت ناطقاً عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف المراتب ، حتى يظهر لك أنه لا يمكن الانتقال من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الدرجة الرفيعة الشريفة إلا بتدبير أقدر القادرين ، وأحكم الحاكمين ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون .

* * *

الوجه الثاني :

لأنه تعالى مدح المؤمنين في سورة البقرة من أول السورة إلى قوله : ﴿وأولئك هم المفلحون﴾^(١) . وذم الكافرين في آيتين : أولهما قوله : ﴿إن الدين كفرؤا﴾ إلى قوله : ﴿ولهم عذاب عظيم﴾^(٢) . ثم ذم المنافقين في ثلاث عشرة آية : أولها قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ إلى قوله : ﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم﴾^(٣) . ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كأنه قيل : هذا المدح والذم لا يستقيم إلا بتقديم الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة والمعاد ، فإن أصول الإسلام هي هذه الثلاثة . فلهذا السبب بين الله تعالى صحة هذه الأصول بالدلائل القاطعة .

فبدأ أولاً بإثبات الصانع وتوحيده ، وبيّن ذلك بخمسة أنواع من الدلائل : أولها : أنه استدلل على التوحيد بأنفسهم ، وإليه الإشارة بقوله :

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١ - ٥ . (٢) سورة البقرة ، الآيات : ٨ - ٢١ . (٣) سورة البقرة ، الآيات : ٦ - ٧ .

﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم﴾^(١) . وثانيها : بأحوال آبائهم وأجدادهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿والذين من قبلكم﴾^(٢) . وثالثها : بأحوال أهل الأرض ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿الذي جعل لكم الأرض فيراً﴾^(٣) . ورابعها : بأحوال أهل السماء ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿والسما بناء﴾^(٤) . وخامسها : بالأحوال الحادثة المتعلقة بالسماء والأرض ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾^(٥) . فإن السماء كالآب ، والأرض كالأم ، ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض ، فيولد منها أنواع النبات ، ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾^(٦) .

وذلك : أن هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ . وذلك : أن هذه الدلائل تدل على وجود الصانع من وجه ، وعلى كونه تعالى واحداً من وجه آخر ، فإنها من حيث أنها حدثت مع جواز ألا تحدث ، ومع جواز أن تحدث على خلاف ما حدثت به ، يدل على وجود الصانع القادر . ومن حيث أنها حدثت لا على وجه التحلل والفساد دلت على وحدة الصانع القادر . كما قال تعالى : ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾^(٧) . فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلائل الخمسة ذينك المطلوبين : أحدهما : إثبات الصانع . والثاني : إثبات كونه واحداً ، لأنه قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾^(٨) ، يشتمل على إثبات الإله ، وعلى إثبات كونه واحداً .

ثم مهنا لطيفة أخرى مرعية في هذه الآية ، وهي : أن الترتيب الحسن المفيد في التعليم أن يقع الابتداء في التعليم من الأظهر فالأظهر ، مرتقياً إلى الأخص فالأخص . وهذه الدقيقة مرعية في هذه الآية . وذلك أنه

(١) و (٢) و (٣) و (٤) و (٥) و (٦) سورة البقرة ، الآيات : ٢١ - ٢٢ .

(٧) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

(٨) سورة البقرة ، الآية : ٢٢ .

سبحانه وتعالى قال : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم ﴾ . فجعل استدلال كل عاقل بنفسه مقدماً على جميع الاستدلالات ، لأن اطلاع كل واحد على أحوال نفسه أتم من اطلاعه على أحوال غيره ، فسيجد بالضرورة من نفسه (أنه) تارة يكون مريضاً ، وتارة صحيحاً ، وتارة ملتئداً ، وتارة مثلاً ، وتارة شاباً ، وتارة شيخاً ، والانتقال من بعض هذه الصفات إلى غيرها ليس باختيار أحد من البشر .

وأيضاً فقد يجتهد في طلب كل شيء فلا يجد ، وكثيراً ما يكون غافلاً عنه فيحصل ، وعند ذلك يعلم كل أحد عند نقض العزائم وفسخ المهمم : أنه لا بد من مدبر يكون تدبيره فوق تدبير البشر . وربما اجتهد العاقل الذكي في الطلب فلا يجد ، والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب . فعند هذه الاعتبارات يلوح له صدق قول الشافعي رضي الله عنه :

ومن الدليل على القضاء كونه يؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ويظهر له أن هذه المطالب إنما تحصل وتيسر بناء على قسمة قسام لا يمكن منازعته ولا مغالبتها ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ نحن قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ ﴾ (١) .

ثم إن هذه الاعتبارات غير محصورة ، فتارة كما في قوله تعالى : ﴿ أَمِّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ (٢) . وأخرى كما في قوله : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُوكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (٣) . وبالحملة ، فلما كان اطلاع كل أحد على أحوال نفسه أشد من اطلاعه على أحوال غيره ، لا جرم قدم هذا الدليل على سائر الدلائل .

ثم هذه المراتب يتلوها مرتبة أخرى ، وهي علم كل أحد بأحوال آبائه وأجداده وأهل بلده . ثم هذه المرتبة الثانية تتلوها مرتبة ثالثة ، وهي معرفة الانسان بأحوال الأرض التي هي مسكن الخلائق ، فإنها مختلفة

(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٢ .

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٣٢ .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .

الأجزاء ، كما قال : ﴿ وفي الأرض قُطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ (١) . وقال أيضاً : ﴿ ومن الجبال جُدُدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٢) . ثم هذه المرتبة الثالثة تتلوها مرتبة رابعة ، وهي العلم بأحوال الأفلاك ، فإن بعضها يخالف البعض في العلو والسفل ، والصغر والكبر ، والبطء والسرعة ، واختلاف أحوال الكواكب المذكورة فيها ، كما قال : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣) . وقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٤) . وقال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٦) . وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسْتَخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ (٧) . وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمِيراً مُنِيراً ﴾ (٨) . وقال في سورة نوح : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ (٩) . وقال في سورة يس : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقَ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَمْسِ ، الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴾ (١١) .

ثم بعد هذه المرتبة الرابعة مرتبة خامسة ، وهي الأحوال المنزلة من السماء إلى الأرض ، وهي نزول المطر من صلب السماء ووقوعه في رحم الأرض ، ثم بعد ذلك يحدث في الأرض الواحدة أنواع من النبات ، بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في الشكل والطعم والخاصية . فمنه ما يكون قوتاً ، ومنه ما يكون فاكهة ، ومنه ما يكون دواء ، ومنه ما

- | | |
|----------------------------------|---|
| (١) سورة الرعد ، الآية : ٤ . | (٧) سورة الأعراف ، الآية : ٤٤ . |
| (٢) سورة فاطر ، الآية : ٢٧ . | (٨) سورة الفرقان ، الآية : ٦١ . |
| (٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٣٣ . | (٩) سورة نوح ، الآيتان : ١٥ - ١٦ . |
| (٤) سورة الزمل ، الآية : ٩ . | (١٠) سورة يس ، الآية : ٤٠ . |
| (٥) سورة الرحمن ، الآية : ١٧ . | (١١) سورة التكويد ، الآيتان : ١٥ - ١٦ . |
| (٦) سورة المعارج ، الآية : ٤٠ . | |

يكون اداماً ، ومنه ما يكون سماً ، ومنه ما يكون علفاً لسائر الحيوانات .
 فذكر في تفصيل المطعومات قوله : ﴿ إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا
 الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا *
 وَحَدائقَ غَلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (١) .
 وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ (٢) .

بل إذا نظرت إلى ورقة واحدة من أوراق الورد وجدت أن أحد
 وجهيها في غاية الحمرة ، والوجه الآخر في غاية الصفرة ، مع أنها تكون
 في غاية الرقة ، وقلة الشخانة ، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة تأثير
 الكواكب وحركات الأفلاك والطبائع إلى كل واحد من وجهي تلك
 الورقة الرقيقة جداً من الورد نسبة واحدة . فإختصاص أحد وجهي تلك
 الوردة بالحمراء ، والآخر بالصفرة لا بد وأن يكون لأجل القادر المختار
 الذي يفعله بالعلم والقدرة ، لا بالعلية والطبيعة .

وإذا عرفت ذلك ظهر لك أن الله تعالى في ترتيب هذه الدلائل الخمسة ،
 وتقديم بعضها على بعض حكمة بالغة ، وأسراً مرعية ، فسبحان من
 لا نهاية لعلمه ، ولا غاية لحكمته .

ثم إن الله تعالى لما بين دلائل اثبات الصانع ووحديته أردف هذه
 المسألة بمسألة إقامة الدلالة على نبوة محمد ﷺ : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي
 رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ (٣) . وذلك
 لأن المتحدي به وقع بكل القرآن في قوله : ﴿ قُلْ لِّسِنِ اجْتِمَاعَتِ
 الْإِنسِ وَالْجِنِّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ
 كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٤) . فلما عجزوا عن معارضة كل
 القرآن اتبعه بالتحدي بعشر سور من القرآن فقال : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ

(١) سورة عبس ، الآيات : ٢٥ - ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩٥ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ .

(٤) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨ .

سُورٍ مِثْلَهُ مُقْتَرِيَاتٍ ﴿١﴾ . فلما عجزوا عنه اتبعه بالتحدي بسورة واجدة قال : ﴿ فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ (٢) . فلما عجزوا اتبعه بالتحدي بآية فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ (٣) . فلما عجزوا عنه مع توافر الدواعي ظهر كونه معجزاً باهراً ، وبرهاناً قاهراً .

ثم أنه اتبع هذه المسألة بمسألة المعاد ، هي قوله : ﴿ وبشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (٤) . كأنه قيل : إنما قدمنا مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين ، ولو لم يكن معاد يجحد المنحسن ثمرة لإحسانه ، ويجد المسيء عقابة لإساءته ، لم يكن ذلك لاثقاً بحكمته . وهذا هو المراد من قوله : ﴿ ليعجزى الذين أساءوا بما عملُوا ويجزى الذين أحسنُوا بالحسنى ﴾ (٥) . وقال في سورة طه : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ (٦) . وقال في ص : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٧) .

فظهر بما ذكرنا : أنه تعالى لم يذكر في أول كتابه إلا دلائل التوحيد والنبوة والمعاد ، فثبت أنه لا بد من تقديم الأصول على الفروع ، فلهذا السبب قدم الأمر بالتوحيد على الأمر بالاستغفار ، فقال : ﴿ فاعلمم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ (٨) .

* * *

الوجه الثالث في تقرير هذا الأصل :

إنه تعالى قال في أول سورة النحل : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من

- | | |
|--------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة هود ، الآية : ١٣ . | (٥) سورة النجم ، الآية : ٣١ . |
| (٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ . | (٦) سورة طه ، الآيتان : ١٤ - ١٥ . |
| (٣) سورة الطور ، الآية : ٣٤ . | (٧) سورة ص ، الآية : ٢٨ . |
| (٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥ . | (٨) سورة محمد ، الآية : ١٩ . |

أمره على مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ تُذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿١﴾ .

فقوله : « لا إله إلا أنا » إشارة إلى علم الأصول . وقوله : « فاتقون » إشارة إلى علم الفروع .

* * *

الوجه الرابع :

إن موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة عند فرعون قال له فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٢) . يعني : أن رسالتك متفرعة على إثبات أن للعالم إلهاً ، فما الدليل عليه ؟ ثم إن موسى عليه السلام لم ينكر عليه هذا السؤال ، بل اشتغل بذكر الدلائل على وجود الصانع ، فقال : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ ^(٣) . فاستدل على وجود الصانع أولاً بأحوال نفسه ، وثانياً بأحوال آبائه ، وهو نظير قوله في سورة البقرة : ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ ^(٤) .

فظهر بما ذكرنا من الوجوه الفائدة في أنه تعالى ذكر أولاً قوله : ﴿ فاعلم أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . وذكر ثانياً قوله : ﴿ واستغفر لذنوبك ﴾ . والله أعلم بحقائق كتابه .. فهذا ما يتعلق بالدلائل القرآنية الدالة على وجوب تقديم علم الأصول على علم الفروع . ويؤكد هذا المعنى بعشر حجج أخرى :

الحجة الأولى : وهي أن شرف العلم بشرف المعلوم ، فمهما كان المعلوم أشرف كان العلم الحاصل به أشرف ، ولما كان أشرف المعلومات ذات الباري تعالى وصفاته ، وجب أن يكون معرفته وتوحيده أشرف العلوم .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢١ .

(١) سورة النحل ، الآية : ٢ .

(٢) سورة الشعراء ، الآية : ٢٣ .

الحجة الثانية : أن العلم إما أن يكون دينياً ، أو يكون غير ديني .
ولا شك أن العلم الديني أشرف من غير الديني . وأما العلم الديني فأما
أن يكون علم الأصول أو ما عداه . أما ما عداه على الأصول فإن صحته
متوقفة على صحة علم الأصول ، لأن المفسر إنما يبحث عن معاني كلام
الله تعالى ، وذلك فرع على معرفة الصانع المختار المتكلم . وأما
المتحدث فإنما يبحث عن كلام رسول الله ﷺ ، وذلك فرع على اثبات
نبوته . والفقيه يبحث عن أحكام الله تعالى ، وذلك فرع على ثبوت
التوحيد والنبوة . فثبت أن هذه العلوم مفسرة إلى علم الأصول . وظاهر
أن علم الأصول غني عنها بأسرها ، فوجب أن يكون علم الأصول
أشرف .

الحجة الثالثة : أن شرف الشيء قد يظهر بواسطة حساسة ضده ،
فكلما كان ضده شيئاً أخس ، كان هو أشرف ، ولا شك أن ضد علم
الأصول هو الكفر والبدعة ، وهما من أخس الأشياء ، فوجب أن يكون
علم الأصول من أشرف العلوم .

الحجة الرابعة : أن شرف العلم تارة يكون لشرف موضوعه ،
وتارة لشدة الحاجة إليه ، وتارة لقوة براهينه ودلائله ، وذلك : أن
علم الهيئة أشرف من علم الطب ، مع أن الحاجة إلى الطب أشد ،
وعلم الحساب أشرف منهما ، من حيث أن موضوع علم الهيئة أشرف من
موضوع علم الطب ، وأن كان علم الطب أشرف من حيث أن براهينه
هذا العلم أقوى ، وعلم الأصول مجتمع لهذه الخصال .

أما شرف هذا الموضوع فذلك لأن المباحث عنه ذات الله تعالى
وصفاته ، وقدرته وعظمته ، ولا شك في أنه أشرف ، وأما شدة الحاجة
إليه فظاهر (وذلك) لأن الحاجة أما في الدين وأما في الدنيا .

أما في الدين فلأن من عرف هذه المطالب يستحق الثواب العظيم ،
ويتخلص من العقاب الأليم ، ويصير من زمرة الملائكة المقربين ، في

جوار رب العالمين . ومن جهلها صار محروماً من الثواب العظيم ،
مستوجباً للعقاب الأليم ، وصار من زمرة الأبالسة والشياطين ، وبقي
في دركات الضلالة أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

وأما في الدنيا فلأن معظم مصالح العالم إنما تنتظم بسبب الرغبة في
الثواب ، والرغبة من العقاب ، وإلا لوقع الهرج والمرج في
العالم .

وأما قوة براهين هذا العلم فلأن براهينه مركبة من المقدمات البديهية
الضرورية ، وهي أقوى العلوم والمعارف .. فثبت أن علم الأصول
مستجمع خصال الشرف ، فوجب أن يكون أشرف العلوم .

الحجة الخامسة : أن هذا العلم لا يتطرق إليه النسخ والتغيير ولا
يختلف باختلاف النواحي والأمم ، بخلاف سائر العلوم ، فوجب أن
يكون أشرف العلوم .

الحجة السادسة : أن الإنسان لا يكون من أهل النجاة والدرجات
إلا مع هذا العلم ، وقد يكون من أهل النجاة ، وإن لم يعلم شيئاً من الفقه
أصلاً البتة . أما أنه لا بد في النجاة من علم الأصول فلأن الجاهل بالله
البتة لا يكون من أهل النجاة بالإجماع . وأما أنه قد تحصل النجاة بدون
الفقه ، فلأن الإنسان قبل البلوغ لا يكون مكلفاً بشيء من الأعمال ،
فإذا بلغ وقت الضحوة الكبرى ففي هذه الساعة لم يجب عليه شيء من
الصلوات والزكوات والصيامات وسائر العبادات . فلو مات في هذه
الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله مؤمناً حقاً . ولو قدرنا أن هذا الذي
بلغ كان امرأة ، ثم لما بلغت حاضت ، وبقيت مدة أخرى في البلوغ ،
وهي غير مكلفة لا بالصلاة ولا بالصيام ولا بالقراءة ، فإذا انقضى
زمان حيضها وماتت فهي قد لقيت حضرة الله تعالى مؤمنة حقاً .
فعلمنا أن النجاة ، واستيجاب الدرجات ، لا يتوقف على الفقه ، وهو
موقوف على علم الأصول .

الحجة السابعة : أن الآيات المشتمة على دلائل علم الأصول أشرف

من الآيات المشتملة على دلائل علم الفروع ، بدليل أنه قد جاء في فضيلة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (١) . و ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ (٢) وآية الكرسي ، و ﴿ شهيد الله ﴾ (٣) . ما لم يجيء في فضيلة قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ (٤) ، و ﴿ وأحلَّ الله البيع ﴾ (٥) ، يا أيُّها الذين آمنوا إذا تدابنتم بدين ﴿ (٦) الآية . ولذلك فإن الزهاد والعباد يواظبون في شرائف الأوقات على قراءة هذه الآيات المشتملة على الالهيات ، دون الآيات المشتملة على الأحكام .

الحجة الثامنة : ان الآيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما اللواتي في بيان التوحيد والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين ، وفي اثبات النبوات والمعاد ، ومسألة القضاء والقدر فكثيرة .

وأما الآيات الواردة في القصص منها اما التوحيد ، وأما النبوة ، أما التوحيد فهو : الاستدلال على قدرة الله وعظمته وحكمته ، كما قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى ﴾ (٧) . وأما على النبوة فمن وجهين .

الأول : بالآفاظ مختلفة كما قال في سورة الشعراء بعد ذكر القصص : ﴿ وأنه لتنزيل ربِّ العالمين * نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (٨) . ووجه الاستدلال : أنه عليه السلام لما لم يتعلم علماً ، ولم يقرأ كتاباً ، ولم يتلمذ الأستاذ ، استحال منه رواية القصص إلا عن وحي الله وتنزيله .

والثاني : أنه يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة بالآفاظ مختلفة ، وكل ذلك متشابهة في الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر القصة الواحدة مرة واحدة بالآلفاظ الفصيحة ، عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى

- | | |
|----------------------------------|---|
| (١) سورة الاخلاص ، الآية : ١ . | (٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٧٥ . |
| (٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٥ . | (٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ . |
| (٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ . | (٧) سورة يوسف ، الآية : ١١١ . |
| (٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ . | (٨) سورة الشعراء ، الآيات : ١٩٢ - ١٩٤ . |

بالألفاظ الفصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله لا من عند البشر . فدل (ذلك) على أن معظم القرآن في علم الأصول ، فلنشر إلى معاني الدلائل .

أما دلائل التوحيد فتارة بإنحلاق الإنسان من النطفة ، والله تعالى ذكر هذا الدليل من ثمانين مرة في القرآن . وتارة بدلائل الآفاق ، وهي أحوال الأرض والسماء والهواء والنبات ، وهي أظهر من أن تحتاج إلى الشرح .

وأما الدلائل الدالة على الصفات فنقول : أما الذي يدل على العلم فقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (١) . ثم أرفده بقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ (٢) . وهذا دليل المتكلمين ، فانهم يستدلون بأحكام الأفعال واتقانها على علم الفاعل ، وههنا استدلال سبحانه بتصوير الصور في ظلمات الأرحام على كون الفاعل عالماً .

وقال أيضاً : ﴿ الْإِلَهَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٣) . وهو غني عن تلك الدلالة . وقال : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (٤) . وهذا التشبيه للدلالة على كونه تعالى عالماً بكل المعلومات ، لأنه تعالى يخبر عن المغيبات فتقع تلك الأشياء على وفق ذلك الخبر ، وذلك يدل على كونه تعالى بكل المغيبات .

وأما صفة القدرة فكل ما ذكر الله تعالى في القرآن من الثمرات المختلفة ، والحيوانات المختلفة ، مع استواء تأثير الطبايع والأفلاك ، فانه يدل على صفة القدرة . وسيجيء الاستقصاء في هذه الدلائل القرآنية .

الحجة التاسعة : أنه تعالى حكى عن أكثر الأنبياء عليهم السلام أنهم كانوا طول عمرهم مشغولين بهذه الدلائل ، ولذا ذكر ما ينبه على المقصود .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الملك ، الآية : ١٤ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٥٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٦٠ .

أما الملائكة عليهم السلام فلأنهم لما قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (١) . فكان المراد من خلق هؤلاء ليكونوا سبب الشر والفتنة ، وذلك قبيح ، والحكيم لا يفعل القبيح ، فأجابهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . والمعنى والله أعلم : لأنني لما كنت عالماً بكل المعلومات ، كنت قد علمت في خلقهم وإيجادهم حكمة لا تعلمونها أنتم . فلما سمعوا ذلك سكتوا .

وأما مناظرة الله مع إبليس فالقرآن ناطق بها .

وأما الأنبياء عليهم السلام فأولهم آدم عليه السلام ، وقد أظهر الله تعالى الحجة على فضله بأن أظهر علمه على الملائكة ، وذلك محض الاستدلال .

وأما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾ (٣) . ومعلوم أن مجادلة الرسول مع الكفار لا تكون في تفاصيل الأحكام الشرعية ، فلم يبق إلا أنها في التوحيد والنبوة . وأيضاً فإنه عليه السلام لما أمرهم بالاستغفار في قوله : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ (٤) . ففي الحال ذكر ما يدل على التوحيد فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ (٥) .

وأما إبراهيم عليه السلام فلاستقصاء في شرح أحواله يطول في هذا الباب ، وله مقامات :

أولها : مع نفسه ، وهو قوله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي ﴾ (٦) . إلى آخر الآية . فهذه طريقة المتكلمين . فإنه استدل بأفولها على حدوثها ، ثم استدل بحدوثها على وجود محدثها ، كما أخبر الله

(١) و (٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ . (٥) سورة نوح ، الآيتان : ١٥ - ١٦ .

(٣) سورة هود ، الآية : ٣٢ . (٦) سورة الأنعام ، الآية : ٧٦ .

(٤) سورة نوح ، الآية : ٦٠ .

تعالى بقوله : ﴿ يا قوم إني بريء مما تُشركون * إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ﴾ (١) . ثم إن الله تعالى عظم شأنه بسبب ذلك فقال : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه * نرفع درجات من نشاء ﴾ (٢) . وأيضاً ذكر في وقت دعائه ما هو محض الاستدلال ، وهو قوله : ﴿ الذي خلقتني فهو يهدين * والذي هو يُطعمني ويسقين ﴾ (٣) . إلى آخر الآيات .

وثانيها : مناظرة إبراهيم مع أبيه ، وهي قوله : ﴿ يا أبتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ (٤) . إلى آخر الآيات .

وثالثها : حاله مع قومه ، تارة بالقول ، وأخرى بالفعل . أما القول فقوله : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ (٥) . وأما بالفعل فقوله تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ جِذَاذًا إِلَّا كَثِيراً هُمْ لَعْنَهُمْ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٦) .

ورابعها : حاله مع ملك زمانه ، حيث قال : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (٧) . إلى آخر الآية . فهذا كل مباحثة إبراهيم عليه السلام في معرفة المبدأ .

وأما بحثه في معرفة المعاد فهو كقوله : ﴿ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ (٨) . إلى آخر الآية .

واعلم أن موسى عليه السلام كان يقول في الاستدلال على طريقة دلائل إبراهيم . وذلك أنه حكى في سورة طه أن فرعون قال له ولهارون :

- | | |
|--------------------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة الأنعام ، الآيتان : ٧٨-٧٩ . | (٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٢ . |
| (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٨٣ . | (٦) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٨ . |
| (٣) سورة الشعراء ، الآيتان : ٧٧-٧٩ . | (٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ . |
| (٤) سورة مريم ، الآية : ٤٢ . | (٨) سورة البقرة ، الآية : ٢٦٠ . |

﴿ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ^(١) . فرد بقوله : ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ^(٢) . وهذا هو الدليل الذي ذكره إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ^(٣) . ثم حكى الله تعالى عن موسى في سورة الشعراء انه قال لفرعون : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ^(٤) . وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ ^(٥) . فلما لم يكتف فرعون بذلك ، وطالبه بدليل آخر ، قال موسى : ﴿ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ ^(٦) وهذا هو الذي عول عليه إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ^(٧) .

وهذا ينبهك على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام . ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلائل التوحيد قال : ﴿ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(٨) . وهذا يدل على أنه عليه السلام إنما فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة .

وأما سليمان عليه السلام فله مقامان : أحدهما في بيان إثبات التوحيد ، والآخر في إثبات النبوة .

أما المقام الأول في إثبات التوحيد فهو في قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ ^(٩) . وهذه الآية دالة على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم . أما القدرة ففقوله : ﴿ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وسمى الحباء بالمصدر ، وهو يتناول جميع أنواع الأرزاق ، وإخراجه من السماء بالغيث ، ومن الأرض بالنبات ، وتقديره ما قدمناه . وأما العلم فيدل على ثبوته قوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ .

(١) سورة طه ، الآية : ٤٩ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٥٠ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٧٨ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

(٦) سورة الشعراء ، الآية : ٢٨ .

(٧) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

(٨) سورة الشعراء ، الآية : ٢٨ .

(٩) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

واعلم ان المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس ،
وتخليص الدلالة على قانون الجدل على وجهين : الأول : الاله . ويجب
أن يكون قادراً على إخراج الخبء ، ويكون عالماً بالخفيات ، والشمس
ليست كذلك ، فهي لا تكون إلهاً . أما انه سبحانه يجب أن يكون قادراً
عالمًا على الوجه المذكور ، فكما أنه واجب الوجود لذاته ، فلا تختص
قدرته وعلمه ببعض المقدورات وبعض المعلومات دون البعض . وأما أن
الشمس ليست كذلك فلائها جسم متناه ، وكل ما كان متناهياً في الذات
كان متناهياً في الصفات . وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن تكون الشمس
قادرة على إخراج الخبء وعالمة بالخفيات . وإذا لم يعلم من حائلها كونها
قادرة على جلب المنافع ودفع المضاد فهي ليست إلهاً فرجع حاصل هذا
الدليل إلى ما ذكره إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا
لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ ^(١) .

الوجه الثاني : أن هذا اشارة إلى دليل إبراهيم في قوله : ﴿ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ ^(٢) . إلى آخر الآية . وبيانه : أنه سبحانه وتعالى
هو الذي يخرج الشمس من المشرق إلى المغرب بعد أفولها ، فهذا هو
المراد بإخراج الخبء في السموات والأرض ، وهو المراد من قول إبراهيم
عليه السلام : ﴿ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ ^(٣) . ومن قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي
بِالْشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ ^(٤) . ومن قول موسى :
﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ ^(٥) .

وحاصل الكلام رجع إلى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على
كونها تحت تدبير مدبر قاهر ، فكانت العبادة لقاهرها ومدبرها ،
والمتصرف فيها أحق .

وأما إخراج الخبء من الأرض فالمراد منه : إخراج النطفة من بين
الصلب والترائب ، وهو المراد من قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ .

(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

(٥) سورة الشعراء ، الآية : ٢٨ .

(١) سورة مريم ، الآية : ٤٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٨ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٦ .

ومن قول موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ (١)

فإن قيل : إن إبراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلائل النفس على دلائل الأفلاك . فإن إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ رَبِّي الَّذِي يُسْجِي وَيُمِيت ﴾ . ثم قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ . وموسى عليه السلام قال : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ . ثم عكس سليمان هذا الترتيب ، فقدم دلائل السموات على دلائل النفس فقال : ﴿ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢)

فاعلم أن موسى وإبراهيم عليهما السلام كانت مناظرتهما مع من ادعى إلهية البشر . فإن نمرود وفرعون كل واحد منهما كان يدعي الإلهية ، فلا جرم ابتداء إبراهيم وموسى بإبطال الإلهية للبشر ، ثم انتقلا إلى إبطال الإلهية للأفلاك . وأما سليمان عليه السلام فإنه كانت مناظرته مع من يدعي إلهية الشمس ، فإن الهدهد قال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (٣) . فلا جرم ابتداء بذكر السموات ، ثم ذكر الأرضيات .

ثم إن سليمان عليه السلام لما تمم دلائل التوحيد قال بعدها : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (٤) . والمراد : أنه لما بين افتقار السموات والأرض وسائر الأفلاك إلى مدبر خالق ، ذكر بعد ذلك أن كل ما كان جسماً فهو مخلوق ومربوب ، سواء كان عظيماً أو صغيراً ، فقال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ . فهذا مقام سليمان عليه السلام في تقرير دلائل التوحيد .

وأما المقام الثاني الذي هو في تقرير دلائل النبوة فهو قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ قال عفریت من الجنّ أنا آتیک به قبل أن تقوم من

(١) سورة الشعراء ، الآية : ٢٦ .

(٢) سورة النمل ، الآية : ٢٤ .

(٣) سورة النمل ، الآية : ٤٢ .

(٤) سورة النمل ، الآية : ٢٦ .

مقامك . وإنني عليه لقوي أمين * قال الذي عنده علم من الكتاب
أنا آتيك به قبل أن يرتد طرفك * فلما رآه مستقراً عنده قال هذا
من فضل ربّي ليبلوني أشكر أم أكفر ﴿١﴾ .

واعلم أن كثيراً من الناس قالوا : ذلك الشخص الذي قال : ﴿ أنا
آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ هو غير سليمان ، وظنوا أن الكاف
في قوله : « آتيك » خطاب مع سليمان ، وعلى هذا التقدير لا بد وأن
يكون القائل غير سليمان .. إلا أن هذا ضعيف ، بل الصحيح عندنا :
أن الآتي بذلك العرش هو سليمان . وذلك أنه عليه السلام قال : « أيكم
يأتيني بعرشها » على سبيل التحدي . فقال العفريت : « أنا آتيك به قبل
أن تقوم من مقامك » . فقال سليمان عليه السلام للعفريت :
« أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » . فهذا الكلام قاله سليمان
للعفريت تقريراً لتحديه الذي ذكره أولاً ، وكسراً للعفريت ، وإظهاراً
للمعجزة .

والذي يدل عليه وجوه :

الأول : أن سليمان عليه السلام ذكر دلائل التوحيد أولاً ، ثم افتقر
بعد ذلك إلى تقرير دلائل النبوة ، ومع بلقيس فإن سليمان قد كلفها
الاقرار بالتوحيد والنبوة ، فلما ذكر دلائل التوحيد وجب عليه أن يذكر
بعد ذلك دلائل النبوة ، وهذا معجز دال على النبوة ، فوجب جعله
معجزاً لسليمان عليه السلام حتى يتم الدليل .

الثاني : أن لفظة « الذي » موضوعة في اللغة للإشارة إلى شخص
معين عند محاولة تعريفها بقصة معلومة ، والشخص المعروف بأن عنده
علم الكتاب هو سليمان عليه السلام . قال الله تعالى : ﴿ فَفَقَّهَمْنَاهَا
سُلَيْمَانُ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ﴾ (٣) . فوجب

(٣) سورة النمل ، الآية : ١٦ .

(١) سورة النمل ، الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٧٩ .

انصرفه إليه . وأقصى ما في الباب : ان آصف أيضاً كان عالماً بالكتاب ،
إلا أن سليمان كان أعرف من آصف ، لأن الرسول أعرف بكلام الله من
غيره ، فكان صرف اللفظ إلى سليمان أولى .

الثالث : ان احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية ،
فلو حصل لآصف دون سليمان لاقتضي ذلك تفضيل آصف على سليمان ،
وانه غير جائز .

الرابع : ان سليمان لو افتقر في هذا الغرض إلى آصف لاقتضي
قصور سليمان في أعين الخلق .

الخامس : ان سليمان قال : ﴿ هذا من فضل ربِّي ليبلوني
أشكر أم أكفر ﴾ (١) . وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره
الله تعالى بلقاء سليمان . فهذا ما يتعلق باشتغال سليمان عليه السلام
بتقرير التوحيد والنبوة ، والله أعلم .

وأما عيسى عليه السلام فانه أول ما تكلم شرح أمر التوحيد ،
فقال : ﴿ إني عبدُ الله ﴾ (٢) . وشهادة حاله دالة على صدق مقالته ،
وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة لكل المقاصد .

أما دلالتها على التوحيد فان انطاق الطفل في زمان الطفولية لا
يتأتى إلا من الإله القادر على كل المقدورات . وأما دلالتها على النبوة
ففي دلالتها على براءة أمه من طعن اليهود ، فإنه لا يليق بحكمة الحكيم
تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية ، والدرجة الشريفة .. ثم انه عليه
السلام بعد هذه الكلمة الوافية بتقرير كل الأغراض انتقل إلى بيان الشرائع
فقال : ﴿ أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ (٣) .

وأما محمد ﷺ فاعلم ان اشتغاله بتقرير دلائل التوحيد والنبوة
والمعاد أظهر من أن يحتاج فيه إلى مزيد تقرير . وذلك أنه ﷺ كان مبتلي
بالرد على جميع فرق الكفار :

(١) سورة النمل ، الآية : ٤٠ .

(٢) و (٣) سورة مريم ، الآية : ٣٠ .

فالأول : الدهرية ، الذين كانوا يقولون : ﴿ وما يُهْلِكُنَا إِلَّا
الدَّهْرُ ﴾ (١) . والله تعالى أبطل قولهم ، فانه خالق الدهر والزمان .

والثاني : الذين ينكرون القادر المختار (٢) ، والله تعالى أبطل قولهم
بحدوث أنواع النبات ، وأصناف الحيوانات ، مع اشتراك الكل في تأثير
الطبايع والأفلاك .

والثالث : الذين أثبتوا شريكاً مع الله ، وذلك الشريك أما أن يكون
علوياً أو سفلياً .

أما الشريك العلوي فمنهم من أثبت أن ذلك الشريك هو الكوكب ،
والشمس والقمر ، والله تعالى أبطله بدليل الخليل ، وهو قوله : ﴿ لَا
أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (٣) . ومنهم من قال : هو النور والظلمة ، والله تعالى
أبطله بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ
الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٤) . ومنهم من قال : يزدان وأهرمن (٥) ،
والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (٦) .
وبقوله : ﴿ إِذَا لَابَتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ (٧) . وبقوله :
﴿ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٨) .

وأما الشريك السفلي فمنهم من قال بآهية المسيح ، والله تعالى أبطله
بقوله : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ (٩) . ومنهم
من قال : انه الوثن ، والله تعالى أبطله بقوله : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ
لَا يَخْلُقُ ﴾ (١٠) .

والرابع : الذين طعنوا في أصل النبوة ، وحكى الله تعالى عنهم قولهم :

-
- (١) سورة الجاثية : الآية : ٢٤ .
(٢) وهم الذين يقولون بالصدقة ، وينكرون التدبير والأحكام ، ومن ثم ينكرون الخالق .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٦ .
(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١ .
(٥) وهما إله الخير والشر عند الفرس .
(٦) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .
(٧) سورة الإسراء ، الآية : ٤٤ .
(٨) سورة المؤمنون ، الآية : ٩١ .
(٩) سورة النساء ، الآية : ١٧٢ .
(١٠) سورة النحل ، الآية : ١٧ .

أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١﴾ . ثُمَّ رَدَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ ﴿٢﴾ .

والخامس : الذين طعنوا في التكليف ، تارة بأنه لا فائدة فيه ، والله تعالى رد عليهم بقوله : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ﴿٣﴾ . وتارة أخرى بأن الحق هو الخبر ، وهو لا ينافي صحة التكليف ، والله تعالى أجاب عنه بقوله : ﴿لَا يُسْتَعْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونُ﴾ ﴿٤﴾ .

والسادس : الذين سلموا أصل النبوة ، وطعنوا في نبوة محمد ﷺ ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

ثم أن طعنهم كان من وجوه : تارة بالطعن في القرآن ، من حيث أنه مشتمل على ذكر خصائص الحيوانات ، من البعوضة والنملة والذباب ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ ﴿٥﴾ . وتارة بأن القرآن سحر وشعر ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿فَاتَّبِعُوا سُورَةَ مِنْ مِثْلِهِ﴾ ﴿٦﴾ . وتارة بالتماس سائر المعجزات كقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٧﴾ . فأجاب الله عنه بقوله : ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٨﴾ . وذلك أن الدليل لما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فائدة ، وهو قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩﴾ . وتارة بأن هذا القرآن نزل نجماً نجماً بطريق التهمة ، فأجاب الله بقوله : ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ﴿١٠﴾ . وتارة بأنه يحتمل أن يكون هذا القرآن من القاء الجن والشياطين ، كما

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة الاسراء ، الآية : ٩٤ . | (٦) سورة البقرة ، الآية : ٢٣ . |
| (٢) سورة الزخرف ، الآية : ٣٢ . | (٧) سورة الاسراء ، الآية : ٩٠ . |
| (٣) سورة الاسراء ، الآية : ٧ . | (٨) سورة الاسراء ، الآية : ٩٣ . |
| (٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٣ . | (٩) سورة الاسراء ، الآية : ٩٣ . |
| (٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦ . | (١٠) سورة الفرقان ، الآية : ٣٢ . |

في سورة الشعراء ، فأجاب الله عنه بقوله : ﴿ هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ۖ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٌ ۝ ﴾^(١) .

والسابع : الذين أنكروا الحشر والنشر ، والقرآن مملوء من الرد عليهم .

فثبت بما ذكرنا أن الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الأنبياء عليهم السلام .

الحجة العاشرة على نهاية شرف هذا العلم : قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۝ ﴾^(٢) . وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرائع ، لأن من أنكروا نبوته فلا فائدة من الخوض معه في تفاريع الأحكام ، ومن أثبت نبوته فلا يخالفه . فعلمنا بهذا أن الجدال المأمور به في تقرير دلائل الأصول . فإذا ثبت هذا في حق الرسول ثبت في حق أمته ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۝ ﴾^(٣) . ولقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ۝ ﴾^(٤) . وقوله عليه السلام : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِي »^(٥) .

الحجة الحادية عشرة : قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ۝ ﴾^(٦) . وذلك يقتضي أن الجدال مع العلم لا يكون مذموماً . وأيضاً حكى الله تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا : ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ۝ ﴾^(٧) .

(١) سورة الشعراء ، الآيتان : ٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

(٥) أخرجه أبو داود في السنة . عن عمران بن حصين .

(٦) سورة الحج ، الآية : ٨ .

(٧) سورة هود ، الآية : ٣٢ .

ومن المعلوم أن ذلك الجدال كان في تقدير دلائل الأصول . وإذا ثبت بهذه الآيات أن الجدال في تقرير الدلائل مستحسن ، ثبت أن المراد من قوله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (١) . محمول على ذم الجدال في تقرير الباطل .

الحجة الثانية عشرة : أنه تعالى أمر بالنظر ، فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ (٢) . ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ (٣) . ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ (٤) . ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ (٥) . ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٦) .

الحجة الثالثة عشرة : أنه تعالى ذكر التفكير في معرض المدح فقال : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٧) . ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (٨) . وأيضاً ذم المعرضين فقال : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (٩) . ﴿ وَلَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (١٠) .

الحجة الرابعة عشرة : أنه تعالى ذم التقليد فقال حكاية عن الكفار : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (١١) . وقال : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفَرِيقَانِ عَلَيْهِمْ ﴾ (١٢) . ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (١٣) . وقال : ﴿ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ ضَرَبْنَا عَلَيْهَا ﴾ (١٤) . وقال في والد إبراهيم عليه السلام : ﴿ لَتَنِينَ لَسَمُ تَنَتَهُ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيئًا ﴾ (١٥) . وكل ذلك يدل على وجوب النظر وفساد التقليد .

- | | |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة الزخرف ، الآية : ٥٨ . | (٩) سورة يوسف ، الآية : ١٠٥ . |
| (٢) سورة النساء ، الآية : ٨٢ . | (١٠) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٩ . |
| (٣) سورة الفاشية ، الآية : ١٧ . | (١١) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ . |
| (٤) سورة فصلت ، الآية : ٥٣ . | (١٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٠ . |
| (٥) سورة الرعد ، الآية : ٤١ . | (١٣) سورة الشعراء ، الآية : ٧٤ . |
| (٦) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ . | (١٤) سورة الفرقان ، الآية : ٤٢ . |
| (٧) سورة الزمر ، الآية : ٢١ . | (١٥) سورة مريم ، الآية : ٤٦ . |
| (٨) سورة آل عمران ، الآية : ١٣ . | |

الحجة الخامسة عشرة : إنه تعالى حكى أنهم سألوا محمداً ﷺ عن أمور ، كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ ^(١) . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ﴾ ^(٢) . فذكر في هذه المواضع كذا وكذا ، إلا في آية واحدة وهي أنهم سألوه عن مسألة أصولية ، وهي قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴾ ^(٣) . الآية . فهنا حرف التعقيب . يعني : يا محمد ، اذكر هذا الجواب في الحال ، لأن هذه المسألة أصولية ، ولا يجوز تأخير الجواب عنها ، لأن ذلك يقدح في الإيمان ، أما سائر المسائل فإنها فروعية ، فلا يكون تأخير الجواب عنها إلى وقت الحاجة ضاراً .

فثبت بجميع هذه الدلائل وجوب تقديم الأصول على الفروع ، فلا جرم . قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْلِمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ^(٤) . فقدم الأمر بمعرفة التوحيد على الأمر بالاستغفار ، والله أعلم .

(٣) سورة طه ، الآية : ١٠٥ .

(٤) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٢٢ .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ١ .

الفصل الثاني

في

فوائد كلمة لا إله إلا الله

الفضيلة الأولى :

اعلم أن هذا الذكر لما كان من أفضل الأذكار فالعدو لما جاءت المحنة فزع إليه ، والولي لما جاءت المحنة فزع إليه .

أما العدو ، فإن فرعون لما قرب من الغرق قال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾^(١) . والمعنى : أنه لا إله يقدر أن يجعل النار راحة كما في حق إبراهيم ، ولا الماء عذاباً كما في حق فرعون ، إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل .

وأما الولي ، فكما في حق يونس . قال الله تعالى : ﴿ فَتَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾^(٢) . والمعنى : لا إله إلا أنت ، فإنك أنت الذي تقدر على حفظ الإنسان حياً في بطن الحوت ، ولا قدرة لغيرك على هذا الحال .

فإن قيل : كل واحد منهما نادى ، فلماذا قبل نداء أحدهما ولم يقبل نداء الآخر ؟ .

قلنا : الفرق من وجوه :

(١) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .

الأول : أن يونس عليه السلام كان قد سبقت له المعرفة مع هذه الكلمة ، فسبق المعرفة إعانة على قبولها منه ، وأما فرعون فقد تقدم له سبق الكفر ، وذلك لأن الذي تقدم له هو النداء إلى نفسه كما قال تعالى : ﴿ فَحَسَّرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ^(١) . وأما يونس عليه السلام فقد كان ينادي الله . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾ ^(٢) . وأيضاً قال : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّسَبَّيْثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ ^(٣) . وهذا ينبهك على أن من حفظ الله في الخلوات ، يحفظه الله في العلوات .

الثاني : أن يونس عليه السلام إنما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال : (لا إله إلا أنت) . فكان في الحضور والشهود . وأما فرعون فإنه قالها في الغيبة ، فقال : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل) فأحال العلم بحقيقة هذه الكلمة على الغير .

الثالث : أن فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل التقليد لبني إسرائيل ، فقال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ ^(٤) . وأما يونس عليه السلام فإنه إنما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز والانكسار بسبب تلك الكلمات ، ثم قال بعده : ﴿ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٥) . فحصل له العجز والانكسار بسبب الدلة ، فلما كانت هذه مسبقة بالعجز والانكسار ملحوقة بهما لا جرم صارت مقبولة ، لقوله تعالى : ﴿ آمَنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ^(٦) .

الرابع : أن فرعون إنما ذكر هذه الكلمة لا للعبودية ، بل لطلب الخلاص من الغرق ، بدليل قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ ﴾ ^(٧) . وأما يونس عليه السلام فهو إنما قالها لما حصل له من

-
- (١) سورة النازعات ، الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ . (٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .
 (٢) سورة القلم ، الآية : ٤٨ . (٦) سورة النمل ، الآية : ٦٢ .
 (٣) سورة الصافات ، الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ . (٧) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .
 (٤) سورة يونس ، الآية : ٩٠ .

الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية ، ، بدليل قوله بعده :
﴿ سبّحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

* * *

الفضيلة الثانية لهذه الكلمة :

إنه تعالى أمرك بطاعات كثيرة ، من الصلاة والصيام والحج ،
ويستحيل أن يوافقك الله في شيء منها ، ثم أمرك أن تقول : لا إله إلا
الله ، ثم إن الله يوافقك فيها فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو
والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١)

والمقصود من التكرير (٢) وجهان : أن يكون العبد مواظباً على
تكريرها طول عمره . الثاني : كأنه قال : عبدي ، جعلت هذه الكلمة
أول الآية وآخرها ، فاجعلها أنت أيضاً أول عمرك وآخره ، حتى تفوز
بالنجاه والسلامة .

وههنا نكت :

الأولى : أنه جعلك ثالث نفسه (٣) في هذه الآية ، وكفأك هذا فخراً .

الثانية : روي أن يوسف عليه السلام أراد أن يتخذ وزيراً ، فجاءه
جبريل عليه السلام فقال : إن الله يأمرك أن تتخذ فلاناً وزيراً لك . فنظر
إليه يوسف عليه السلام ، وكان الرجل في غاية الدناءة ، فسأل جبريل
عن السبب ، فقال : إن له عليك حق الشهادة : إنه هو الذي شهد
﴿ إِنَّ كَانَ قَسِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ﴾ (٤) . الآية . والاشارة : أن من

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

(٢) يعني تكرير « لا إله إلا هو » في نفس الآية .

(٣) الثلاثة هم : الله سبحانه وتعالى ، والملائكة ، وأولو العلم .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٢٦ .

شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا ، فمن شهد الله بالتوحيد والجلال كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى .

والثالثة : في الحديث : « أن الله ملائكة يُؤمِّنُونَ عند تأمين الامام ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفِرَ له ما تقدّم من ذنبه » ^(١) .
والاشارة : أن من وافق تأمينه تأمين الملائكة مرة صار مغفوراً له ، فمن وافقت شهادته وجدانية الله شهادة الله ألف مرة أولى أن يصير مغفوراً له .

الرابعة : أنه سبحانه سماك وقت التخليق مختاراً ، فقال : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ ^(٢) . أي مختاراً له ، لا أنه أثبت الخيار للعبد ، وفي موضع الذنب سماه جاهلاً فقال : ﴿ إنه كان ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ^(٣) . وفي موضع الرزق سماه دابة فقال : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ^(٤) . وفي وقت الطاعة سماه أجيراً : ﴿ فيسوفيتهم أجورهم ﴾ ^(٥) . وعند الشهادة عالماً : ﴿ والملائكة وأولوا العلم ﴾ ^(٦) . ثم ان العلم أفضل الدرجات : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ ، وكان فضلُ الله عليك عظيماً ﴿ ^(٧) .

والغرض منه : التنبية على الدرجات . فأنت من حيث أني خلقتك مختاري ، فلك درجة موسى حيث قلت : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ ^(٨) . وحين أذنبت فأنت جاهل ، والجهل عذر من بعض الوجوه ، وحين تشغل بطلب الرزق كالبهيمة ، لأنه هو الذي تكفل برزقك ، فما هو مقدور لك يصل اليك ، وما ليس مقدوراً لك لا يصل اليك ، فكان الطلب عديم الفائدة ، فكان هذا شبيه أفعال البهائم ، وحين تشغل بالعمل كنت كالأجير . وتلك كلها درجات نازلة ، أما حين تشغل بالشهادة

(١) أخرجه الطبراني ، عن وائلة بن الأسقع وغيره .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٦٨ . (٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٢ . (٧) سورة النساء ، الآية : ١١٣ .

(٤) سورة هود ، الآية : ٦ . (٨) سورة طه ، الآية : ١٣ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ١٧٣ .

والتوحيد فأنت من العلماء الخائضين في لجة بحر التوحيد . وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف ، كما قال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (١) .

الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ يَبِيمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ (٢) . وقعت هذه الإشارة على العصا وعلى اليد ، أما العصا فقوله : « تلك » وأما اليد فقوله : « يمينك » . فصارت العصا من قوة هذه الكلمة تلقف حبال السحرة وعصيتهم ، وصارت اليد يداً بيضاء ﴿ وادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ (٣) . وكلمة لا إله إلا الله ، وهي صفة وحدانيته وفردانيته في ذاته وجلاله وعزته ، ألا تستقل بإقناء آثار العصيان عن قلب العبد ، وإثارة روحه بنور المعرفة والهداية ؟ .

السادسة : عصا موسى أخرجت من الجنة ، فبطل السحر عندها ، فهذه الكلمة إنما ظهرت من شجرة العزة والربوبية والعظمة ، ونرجو أن تبطل الذنوب عندها .

السابعة : حكى عن الحجاج أنه أمر بضرب عتق رجل ، فقال : لا تقتلني حتى تأخذ بيدي وتمشي معي . فأجابه إليه ، فقال الرجل : بحزمة صحبتني معك في هذه الساعة لا تقتلني . فعفا عنه ، فهنا وقعت للمؤمن صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة ، فارجو أن يغفر الله له .

الثامنة : وجد المؤمن بهذه الشهادة أبوة إبراهيم ، وهو قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٤) . وأمومة أزواج النبي ﷺ ﴿ وَأَزْوَاجَهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ (٥) . وأخوة المؤمنين : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٦) . واستغفار الأنبياء : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٧) . واستغفار الملائكة : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٨) . وشفيعاً مثل

(١) سورة المجادلة ، الآية : ١١ . (٥) سورة الأحزاب ، الآية : ٦ .

(٢) سورة طه ، الآية : ١٧ . (٦) سورة الحجرات ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة النمل ، الآية : ١٢ . (٧) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

(٤) سورة الحج ، الآية : ٧٨ . (٨) سورة المؤمن ، الآية : ٧ .

محمد ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ^(١) . ومشاركة الله تعالى في الاسم « المؤمن » . فذنبه ما أزال عنه هذه التشريفات ، افتوى أنه يخرج عن رحمة أرحم الراحمين ، وأكرم الأكرمين .

التاسعة : يحكى أنه عرض على نصر بن أحمد عسكريه ، وكان يسأل عن أسماء الرجال فيجيبونه ، فسأل واحداً عن اسمه فسكت ، لأنه كان سميّه ، ففطن لذلك ، فأعطاه خلعة ، فإذا كان حال سمي الملك ذلك ، فكيف من كان سمي ربه تعالى « المؤمن » .

* * *

الفصلية الثالثة لهذه الكلمة :

إن كل طاعة فإنه يصعد بها الملك ، أما قول لا إله إلا الله فإنه يصعد بنفسه ، ودليله قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ^(٢) . أي : عمل الصالح ترفعه الملائكة . هكذا قال بعضهم ^(٣) .

* * *

الفصلية الرابعة :

قال بعضهم : الحكمة في قوله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ * وإذا النجوم انكدرت ^(٤) . أن يوم القيامة يتجلى نور كلمة لا إله إلا الله ، فينمحق في ذلك النور نور الشمس والقمر ، لأن تلك الأنوار مجازية ، ونور لا إله إلا الله نور ذاتي واجب الوجود لذاته ، والمجاز يبطل في مقابلة الحقيقة ، فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا

(١) أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .

(٣) انظر الدر المنثور ، ج ٣ / ص ٩٥ .

(٤) سورة التكوين ، الآيتان ، ١ ، ٢ .

النور ، بل يبطل كل وجود في مقابلة هذا الوجود ، كما قال : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (١) .

* * *

الفضيلة الخامسة :

إن جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلاة والصيام والحج ، فإن التكالييف الظاهرة تزول في عالم الغيب ، أما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم ، وكيف يمكن زوالها عنهم والقرآن يدل على أنهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد تدل على المواظبة على الذكر التوحيد . وإنما قلنا : أنهم مواظبون على الحمد لقوله تعالى حكاية عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ (٢) . ﴿ دعواهم فيها سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (٣) . ﴿ لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ (٤) . فثبت أنهم مواظبون على الحمد ، والمواظبة على الحمد مواظبة على الذكر ، فعلمنا أن جميع العبادات زائلة عن أهل الجنة إلا طاعة الذكر والتوحيد .

* * *

الفضيلة السادسة :

ما روي في الآثار أنه قال : « إذا قال العبد : لا إله إلا الله ، فإنه تعالى يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الأرض » (٥) . قال المحققون : السبب في ذلك أنه لما قال هذه الكلمة ، فإنه قد رد على

-
- (١) سورة القصص ، الآية : ٨٨ . (٢) سورة القصص ، الآية : ٧٠ .
(٣) سورة الزمر ، الآية : ٧٤ . (٤) سورة يونس ، الآية : ١٠ .
(٥) لم نعثر على هذا الأثر فيها لدينا من مصادر .

كل كافر وكافرة يثبت لله ضدّاً أو ندّاً أو شريكاً ، فلا جرم يستحق
الثواب بعددهم .

* * *

الفضيلة السابعة :

قال السدي في قوله تعالى : ﴿ حمعسق ﴾ ^(١) . الحاء حلمه وحكمه
وحجته ، والميم ملكه ومجده ، والعين عظمته وعلمه وعزه وعدله ،
والسين سنانه وسره ، والقاف قدرته وقهره ، يقول : بحلمي وبحكمي
وملكي ، وبمجدي وعظمتي ، وعزي وعلمي وعدلي ، وسنائي وسري ،
وقدرتي وقهري ، لا أعذب في النار أبداً من قال : لا إله إلا الله ^(٢) .

* * *

الفضيلة الثامنة :

قيل : إذا كان آخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل
لا إله إلا الله ، لأن صلاتهم وصومهم يشوبها الرياء والسمعة ، وصدقاتهم
يشوبها الحرام والشبهة ، فلا خلاص في شيء منها ، أما كلمة لا إله
إلا الله فهي ذكر الله ، والمؤمن لا يذكر الله إلا من صميم القلب .

* * *

الفضيلة التاسعة :

الأحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة :
فالأول : قوله عليه السلام : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل
الدعاء الحمد لله » ^(٣) .

(١) سورة الشورى ، الآية : ١ .

(٢) انظر حقائق التفسير للسلمي ورقة ٢٤٥ .

(٣) أخرجه البيهقي ، وأحمد ، وأبو يعلى ، عن أبي هريرة .

والثاني : عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة الموت ، ولا وحشة عند النشر ، وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون شعورهم من التراب ويقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » (١) .

والثالث : يروى أن المأمون لما انصرف من مرو يريد العراق ، واجتاز نيسابور ، وكان على مقدمته علي بن موسى الرضا ، فقام إليه قوم من المشايخ ، وقالوا : نسألك بحق قرابتك من رسول الله ﷺ أن تحدثنا حديثاً ينفعنا . فروى عن أبيه عن آبائه عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى أنه قال : « لا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي » (٢) .

الرابع : روي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « يفتح الله أبواب الجنة ، وينادي مناد من تحت العرش : أيتها الجنة ، وكل ما فيك من النعم ، لمن أنت ؟ فتنادي الجنة ومن فيها : نحن لأهل لا إله إلا الله ، ونشتاق لأهل لا إله إلا الله ، ونحن محرمون على من لم يقل لا إله إلا الله ، ومن لم يؤمن بلا إله إلا الله » (٣) .

الخامس : قال عليه السلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » (٤) . قال بعض العلماء : إنه تعالى جعل العذاب عذابين : أحدهما السيف من يد المسلمين ، والثاني عذاب الآخرة ، فالسيف في غلاف يرى ، والنار في غلاف لا يرى ، فقال لرسوله : من أخرج لسانه من غلاف المريء وهو القم فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا السيف في الغمد الذي يرى ، ومن أخرج لسان القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السر ، فقال : لا إله إلا الله ، أدخلنا سيف عذاب الآخرة في غمد الرحمة ، حتى يكون واحد بواحد ، ولا ظلم ولا جور .

(١) أخرجه الحكيم في نوادر الأصول . ص : ٢٠٤ .

(٢) أخرجه الحكيم في نوادر الأصول . ص ٢٠٦ .

(٣) لم نثر على هذا الحديث في مصادرنا .

(٤) حديث متفق عليه . « وحسابهم على الله » يعني من حيث الشرائع .

السادس : عن أنس قال : قال عليه السلام : « من قرأ عند منامه ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (١) . خلق الله تعالى سبعين ألف خلق يستغفرون له إلى يوم القيامة ، وأنا على ذلكم من الشاهدين » (٢) .

السابع : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال عليه السلام : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، و « شهد الله » — إلى قوله — « إن الدين عند الله الاسلام » ، و ﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ ﴾ إلى قوله — ﴿ بغير حساب ﴾ (٣) . معلقات ما بينهن وبين الله حجاب ، يقول الله عز وجل : « بي حلفت ، لا يقرأكن أحد من عبادي إلا جعلت الجنة مثواه على ما كان منه وأسكنته حظيرة القدس ، ولأنظرن اليه بعين الرحمة كل يوم سبعين ألف مرة ، ولقضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وأحفظه من كل عدو وحاسد » (٤) .

الثامن : قال أبو سعيد الخدري : قال عليه السلام : « ما من عبد يقول أربع مرات : اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيداً ، وأشهد حملة عرشك وملائكتك ، وجميع خلقك ، إني أشهد أن لا إله إلا أنت ، وحده لا شريك لك ، وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك ، إلا كتب الله له صكاً لعتق من النار » (٥) .

التاسع : عن ابن عمر قال : قال ﷺ : « يُجاء برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً ، كل سجل مثل مد البصر ، فيقال له : أتتذكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقال : ألك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول

(١) سورة آل عمران ، الآيتان : ٢٨ ، ١٩ .

(٢) أخرجه الدارمي ومسند ، عن أنس كما في كنز العمال ٢٢٢/١ .

(٣) سورة آل عمران ، الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) ذكره ابن الجوزي في الواهيات من الأحاديث . انظر اللعل المتناهية . ص ١٧٥ .

(٥) أخرجه الدارمي والترمذي عن أبي سعيد .

الله تعالى : إن لك عندنا ودیعة ، وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج له بطاقة فيها : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : يارب ، مع هذه البطاقة مع السجلات . فيقول الله : لا ظلم اليوم ، فتوضع البطاقة في كفة ، والسجلات في كفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة ، فلا يثقل مع اسم الله شيء ^(١) .

العاشر : عن أنس قال : قال عليه السلام : « ما زلتُ أشفع إلى ربي فيشفعني ، حتى أقول : يا رب شفّعني فيمن قال : لا إله إلا الله . فيقول الله تعالى : هذه ليست لك يا محمد ، إنما هذه لي ، وعزتي ورحمتي وحلمي ، لا أدع في النار أحداً قال : لا إله إلا الله » ^(٢) .

واعلم أن أهل العرفان ذكروا في تفسير « لا إله إلا الله » وجوهاً :
الأول : قال ابن عباس : لا إله إلا الله : لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطي ولا مانع إلا الله .

الثاني : لا إله يرجى فضله ، ويخاف عليه ، ويؤمن جوده ، ويؤكل رزقه ، ويستل عفوه ، ويترك أمره ، ويرتكب نهيه ، ولا يحرم فضله إلا الله الذي هو رب العالمين ، وغفار المذنبين ، وملجأ التائبين المغومين ، وغاية رجاء الراجيين ، ومتتهى مقصد العارفين .

الثالث : قول العبد : لا إله إلا الله ، إشارة إلى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد ، إلى الملك المجيد ، فإذا قال : لا إله إلا الله ، فالمعنى : لا إله له الآلاء والنعماء ، والقدرة والبقاء ، والعظمة والسناء ، والعزة والثناء ، والسخط والرضا ، إلا الله الذي هو رب العالمين ، وخالق الأولين والآخرين ، وديان يوم الدين .

الرابع : لا إله للرجية ، ولا إله للرهبة ، إلا الله الذي هو كاشف الكربة .

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي .

(٢) ذكره السيوطي في البدور السافرة ، وعزاه إلى ابن المنذر وابن الفريسي .

وعن عمران بن حصين قال : قال عليه السلام لأبي حصين : « كم تعبد اليوم من إله » ؟ قال : أعبد تسعة ، أو سبعة في الأرض ، وواحد في السماء . قال : « أيهم تعبد به برغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذي في السماء . قال : « فيكيفك إله السماء » . ثم قال : « يا حصين ! لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك » . فأسلم حصين ، ثم قال : يا رسول الله ! علمني هاتين الكلمتين فقال : « قل : اللهم ألهمني رشدي ، واغفر لي ، واعصمني من شر نفسي » (١) .

الخامس : قيل في قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ (٢) . يشهد الله تعالى في عوالم القدس ، وحظائر الجلال ، وسراقات الصمدية ، والملائكة يشهدون بهذه الشهادة في السموات ، وأولوا العلم يشهدون بهذه الشهادة في الأرضين .

وقال جعفر الصادق وقد سأله عن هذه الآية : إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأحادية والأزلية ، ثم خلق الخلق ، فشغلهم بعبادة هذه الكلمة (٣) ، وذلك لأن شهادة الحق لنفسه حق ، وشهادتهم له رسم ، فكيف يستوي الرسم مع الحق ، ومن أين للتراب طاقة على تجلي نور رب الأرباب .

وقال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً ، فلما نزل قوله تعالى : « شهد الله » خرت الأصنام سجداً حول الكعبة (٤) .

* * *

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه والطبراني وأبو يعلى .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

(٣) يعني : تعبدهم بها حتى أصبحت شرطاً في الاسلام ، وذكر أيرفع الدرجات .

(٤) انظر الدر المنثور ١/ ١٣٥ .

الفصل الثالث

في

أسماء كلمة التوحيد

الأول : كلمة التوحيد :

وذلك لأنها تدل على نفي الشرك على الإطلاق . وفائدة قولنا :
على الإطلاق ، أنه تعالى لما قال : ﴿ وَلِلَّهِ كُفُوفُ إِلَهٍ وَاحِدٌ ﴾ ^(١) . أمكن
أن يخطر ببال أحد أن يقول : إن إلهنا واحد ، فلعل إله غيرنا مغاير
لإلهنا . فإله تعالى أزال هذا التوهم ببيان التوحيد المطلق ، فقال : ﴿ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ ﴾ ^(٢) . وذلك لأن قولنا : لا رجل في الدار ، يقتضي نفي
الماهية ، ومتى انتفت الماهية ، انتفى جميع أفرادها ، إذ لو حصل فرد
من أفراد تلك الماهية لحصلت تلك الماهية ، لأن كل فرد من أفراد الماهية
يشتمل على الماهية ، وإذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية ، فثبت
أن قولنا : لا رجل في الدار ، يفيد النفي العام الشامل فإذا قيل بعد ذلك :
إلا زيدا ، أفاد التوحيد العام الكامل .

ثم اعلم أن لهذا ثمرتين :

الأولى : إن جوهر الانسان خلق في الأصل مشرفاً مكرماً ، قال
تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ^(٢) . فإذا كان الأصل فيه كونه
مكرماً ، كان كونه مطهراً على وفق الأصل ، وكونه منجساً على خلاف
الأصل ، ثم إنا رأينا الانسان متى أشرك صار نجساً ، بدليل قوله تعالى :

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٣ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٧٠ .

﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ ^(١) . فإذا كان الشرك يقتضي كونه نجساً مع ذلك على خلاف الأصل ، فكونه موحداً بأن يقتضي كونه طاهراً أولى ، لأنه على وفق الأصل . وإذا ثبت أن الموحّد كامل في كونه طاهراً وجب أن يكون من خواص الله تعالى ، لقوله : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ﴾ ^(٢) .

الثانية : أن الشرك سبب لخراب العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * إِنَّ دَعْوَا لِرَحْمَنِ وَلِئْدّاً ﴾ ^(٣) . وإذا كان الشرك سبباً لخراب العالم ، وجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة العالم ، ضرورة كون الضدين مختلفين في الحكم ، فإذا ثبت أن كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم فأولى أن تكون سبباً لعمارة القلب الذي هو محل الوجدانية ، ولعمارة اللسان الذي هو محل ذكر الوجدانية ، وذلك يناسب عفو الله عن أهل التوحيد .

* * *

الاسم الثاني :

إن هذه الكلمة تسمى « كلمة الاخلاص » . وكان معروف الكرخي ^(٤) يقول : « يا نفسي ، تخلصي » . ثم التحقيق فيه : أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه ، وخلص لله ، سمي خالصاً ، وسمي الفعل إخلاصاً .

ولا شك أن كل من أتى بفعل اختياري فلا بد له في ذلك الفعل من غرض ، فمتى كان الغرض في الفعل واحداً ، سمي هذا الفعل إخلاصاً . فمن تصدق وكان غرضه محض الرياء فهو غير مخلص ،

(١) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة النور ، الآية : ٢٦ .

(٣) سورة مريم ، الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

(٤) معروف الكرخي ؛ عابد ، زاهد ، عالم ، مجاب الدعوة . مات سنة ٢٩٥ هـ .

ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله فهو مخلص ، ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الالحاد هو الميل ، ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق .

فإذا عرفت هذا فنقول : الباعث على الفعل إما أن يكون روحانياً فقط ، وهو الاخلاص ، أو شيطانياً فقط ، وهو الرياء ، أو مركباً منهما ، وهو على ثلاثة أقسام ، لأن الطرفين إما أن يكونا على السوية ، أو يكون الروحاني أقوى ، أو يكون النفساني أقوى .

القسم الأول : وهو أن يكون الباعث روحانياً فقط ، وهذا لا يتصور إلا من محب الله ، مستغرق الهم به ، بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه مقر ، حتى لا يحب الأكل والشرب ، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة ، من حيث أنه ضرورة الجبلة . فلذلك لا يشتهي الطعام لأنه طعام ، بل لأنه يقويه على عبادة الله . فمثل هذا الشخص إذا أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل في جميع حركاته وسكناته ، ولو نام مثلاً لتستريح نفسه فتقوى على عبادة الله كان نومه أيضاً عبادة .

أما القسم الثاني : وهو أن يكون الباعث نفسانياً ، فهذا لا يتصور إلا من محب للنفس والدنيا ، مستغرق الهم بهما ، بحيث لم يبق لحب الله في قلبه مقر . وكما أنه في القسم الأول لما غلب حب الله وحب الآخرة على قلبه ، اكتسب بحركاته الاختيارية هذه الصفة ، فكذلك من غلب على قلبه حب النفس والدنيا ، اكتسبت جميع أفعاله تلك الصفة ، فلا يسلم له شيء من عبادته ، وهذان القسمان لا يخفى حكمهما في الثواب والعقاب .

وأما الأقسام الثلاثة الباقية فنقول :

أما الذي فيه الباعثان متساويين ، فالأظهر أنهما يتعارضان ، ويتناقضان ، فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه ، وأما الذي يكون أحد الطرفين فيه أغلب ، فينحط منه ما يساوي الطرف الآخر ، وتبقى الزيادة موجبة

أثرها اللائق بها . وذلك هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ^(١) . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ ^(٢) .

وتمام التحقيق فيه : أن الأعمال لها تأثيرات في القلب ، فإذا خلا المؤثر عن المعارض خلا الأثر عن المضعف ، وإذا كان المؤثر مقروناً بالمعارض ، فإن تساويا تساقطا ، وإن كان أحدهما أغلب فلا بد وإن يحصل في الزائد بمقدار الناقص ، فيحصل التساوي بينهما ، أو يحصل التسايط ويبقى القدر الزائد خالياً عن المعارض ، فيؤثر لا محالة أثراً ما ، وكما لا يخلو مثقال ذرة من الطعام أو الشراب عن أثر في الجسد ، فكذلك لا يخلو مثقال ذرة من الخير والشر عن أثر في التقريب من باب الله تعالى أو التعبير منه . فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يباعده شبراً فقد عاد إلى ما كان عليه ، لا له ولا عليه . وإذا كان أحد الفعلين مما يقربه شبرين والفعل الثاني مما يباعده شبراً واحداً اقترب لا محالة شبراً إلى الله .

واحتج من زعم أن المشوب لا ثواب عليه بوجهين :

الحجة الأولى : ما روي أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن من يصنع المعروف ثم يحب أن يحمد عليه ويؤجر ، فلم يدر ما يقول حتى نزل : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ^(٣) .

الحجة الثانية : ما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام قال لمن أشرك في عمله أحداً : « خذ أجرك ممن عملت له » ^(٤) . وعن النبي ﷺ أن الله يقول : « أنا أغني الأغنياء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري ، تركت نصيبه لشريكي » ^(٥) .

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨ .

(٢) سورة النساء ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة الكهف ، الآية : ١١٠ .

(٤) الواحدي في أسباب النزول . ص ٧٨ .

(٥) رواه الترمذي ، وأحمد ، والطبراني ، وأبو داود .

والجواب عن الحجة الأولى : أنها محاولة على ما إذا أتى بالعمل لغرض الدنيا فقط .

والجواب عن الثانية : أن لفظ الشرك محمول على تساوي الداعيين ، وقد بينا أنه عند التساوي ينحبط كل واحد منهما بالآخر .

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : كلمة لا إله إلا الله ، مسماة بكلمة الاخلاص ، وذلك أن الأصل في هذه الكلمة عمل القلب ، وهو كون الانسان عارفاً بقلبه وحدانية الله تعالى ، وهذه المعرفة الحاصلة بالقلب مستحيل أن يأتي بها لغرض آخر سوى طاعة الله وحيه وعبوديته ، فهذه المعرفة إن طلبت ظلت لوجه الله تعالى ، لا لغرض آخر البتة ، بخلاف سائر الطاعات الدينية ، فإنها كما يؤتى بها لتعظيم الله ، قد يؤتى بها لسائر الأغراض العاجلة من الدنيا ، وطلب المدح والثناء ، فلهذا السبب سميت هذه الكلمة بكلمة الاخلاص .

* * *

الاسم الثاني لهذه الكلمة « كلمة الاحسان » :

ويدل على صحة هذه التسمية القرآن والخبر والمعقول . أما القرآن فأيات :

احدها : قوله تعالى : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ ^(١)

قال المفسرون : المراد من قوله : (هل جزاء الاحسان) : هل جزاء الايمان ^(٢) . والتحقيق فيه : أن عليك عهد العبودية ، وعلى كرمه عهد الربوبية ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ^(٣) وعهد عبوديتك : أن تكون عبداً له لا لغيره . ثم كمال هذه الدرجة : أن تعرف أن كل ما سوى الله فهو عبد له ، كما قال : ﴿ إِنَّ كُلَّ مَنْ

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .

(١) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠ .

(٢) تفسير القرطبي ٧٣/١٧ .

في السموات والأرض إلا أنى الرحمن عبداً ﴿١﴾ . ومن أنى بالفعل على أحسن الوجوه كان محسناً فيه . وقوله : لا إله إلا الله ، يدل على اعترافه بأن كل ما سواه فهو عبده ومربوبه . فثبت أن قول : لا إله إلا الله ، احسان من العبد ، فقوله : (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) أي : هل جزاء من أنى بقول لا إله إلا الله إلا أن أجعله في حماية لا إله إلا الله .

وثانيها : قوله تعالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ﴿٢﴾ . والمراد من قوله : (للذين أحسنوا) هو : قول لا إله إلا الله باتفاق أهل التفسير ﴿٣﴾ . وبدليل أنه لو قال ذلك ومات ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة .

وثالثها قوله : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ ﴿٤﴾ . واتفقوا على أن هذه الآية نزلت في فضيلة الأذان ، وما ذلك إلا لاشتمال الأذان على كلمة لا إله إلا الله . وأيضاً فإنه تعالى قال في صفة الكافرين : ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾ . فكما أنه لا قبيح أقبح من كلمة الكفر ، لا حسن أحسن من كلمة التوحيد . ولهذا قال تعالى في أول سورة المؤمنين : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦﴾ . وقال في آخر السورة : ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٧﴾ .

ثم إنه لما كان قول الموحد حسناً كان مقيله حسناً ، كما قال تعالى : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ ﴿٨﴾ . ولما كان قول الكافر قبيحاً كان مقيله أيضاً مظلماً ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ﴿٩﴾ .

- | | |
|---------------------------------|-----------------------------------|
| (١) سورة مريم ، الآية : ٩٣ . | (٦) سورة المؤمنون ، الآية : ١ . |
| (٢) سورة يونس ، الآية : ٢٦ . | (٧) سورة المؤمنون ، الآية : ١١٧ . |
| (٣) انظر تفسير القرطبي ١١٦/١٥ . | (٨) سورة الفرقان ، الآية : ٢٤ . |
| (٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٣ . | (٩) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٧ . |
| (٥) سورة النكبات ، الآية : ٦٨ . | |

ورابعها قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (١) .
ولا شك أن أحسن القول لا إله إلا الله .

وخامسها قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (٢) .
قيل : العدل : الأعراض عما سوى الله تعالى ، والإحسان : الإقبال
على الله تعالى .

وسادسها : قوله تعالى : ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (٣)
ولا شك أن الإحسان قول : لا إله إلا الله .

وأما الخبر فما روى أبو موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ
(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) : للذين قالوا : لا إله إلا الله الحسنى
وهي الجنة ، والزيادة هي النظر إلى وجهه الكريم » (٤) .

وأما المعقول فهو : إنه كلما كان الفعل حسناً كان فاعله أكثر
إحساناً ، ولا شك أن أحسن الأذكار ذكر لا إله إلا الله ، وأحسن
المعارف معرفة لا إله إلا الله ، وإذا كان كذلك كانت هذه المعرفة وهذا
الذكر إحساناً .

* * *

الاسم الرابع « دعوة الحق » :

قال الله تعالى في سورة الرعد : ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ (٥) .
قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله (٦) . واعلم أن قوله تعالى :
« له دعوة الحق » يفيد الحصر ، ومعناه : له هذه الدعوة لا لغيره ،
كما أن قوله تعالى : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (٧) . معناه : لكم

(٥) سورة الرعد ، الآية : ١٤ .

(٦) انظر الدر المنثور ٣/ ٢٠٠ .

(٧) سورة الكافرون ، الآية : ٦ .

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٨ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٧ .

(٤) انظر الدر المنثور ٣/ ١٧ .

دينكم لا لغيركم ، ولي ديني ، وتحقيق الكلام في إثبات هذا الحصر :
أن الحق نقيض الباطل ، فالحق هو الموجود ، والباطل هو المعدوم ،
فلما كان الحق سبحانه وتعالى حقاً في ذاته وبذاته وصفاته ، وكان ممنوع
التغير في حقيقته ، كانت معرفته هي المعرفة الحققة ، وذكره هو الذكر
الحق ، والدعوة اليه هي الدعوة الحققة .

أما كل ما سواه فهو ممكن لذاته ، ولا يكون حقاً لذاته ، فلا تكون
معرفته واجبة التحقيق ، ولا ذكره ولا الدعوة اليه . وإذا ثبت هذا ظهر
تحقيق قوله تعالى : (له دعوة الحق) .

واعلم أن دعوة الحق تارة تكون من الحق للخلق إلى الحق ، وتارة
تكون من الخلق للخلق إلى الحق .

أما الأول فنقول : إما أن دعوة الحق تكون من الحق فلأنه تعالى
هو الذي دعا القلوب إلى حضرته ، فلولا دعوته إلى تلك الحضرة ،
وتوفيقه في ذلك ما كان الوصول ، وإلا فمن أين يتمكن العقل البشري
من الوصول إلى حضرة الله تعالى . وأيضاً فلأن مبادئ الحركات ، وأوائل
المحدثات تنتهي إلى قدرة الله تعالى وقضائه وقدره ، ولهذا المعنى قال الله
تعالى : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾^(١) . وأما أن تلك الدعوة
للخلق فللقوله تعالى : ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾^(٢) . وأما الانتهاء إلى الحق
فللقوله تعالى : ﴿وَإِن إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾^(٣) .

وأما أن دعوة الحق تارة تكون من الخلق فللقوله تعالى : ﴿وَمَنْ
أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾^(٤) . وللقوله : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا
مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾^(٥) .

* * *

(٤) سورة فصلت ، الآية : ٣٣ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٩٣ .

(١) سورة الروم ، الآية : ٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ١٦ .

(٣) سورة النجم ، الآية : ٤٢ .

الاسم الخامس « كلمة العدل » :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (١) .
 قال عثمان بن مظعون الجمحي : ما أسلمت يوم أسلمت إلا حياة من
 رسول الله ﷺ ، وذلك أنه كان كثيراً ما يدعوني إلى الاسلام ، فاستحييت
 منه وأسلمت ، ولكن الاسلام ما كان مستقراً في قلبي ، ثم إنه عليه
 السلام دعاني يوماً فجلست إليه ، فبينما هو يحدثني إذ وقع بصري على
 شخص ينزل من السماء ، فإذا هو جبريل عليه السلام ، فقال : يا محمد !
 « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » . العدل : شهادة ألا إله إلا الله ،
 والاحسان : القيام بالعبودية . قال عثمان : فوق الاسلام في قلبي (٢) .
 وقال ابن عباس : العدل : شهادة ألا إله إلا الله ، والاحسان :
 الاخلاص فيه (٣) .

وقال آخرون : العدل مع الناس بالرعاية ، والاحسان مع نفسك
 بالطاعة (٤) .

قال تعالى : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٥) .
 وقال آخرون : العدل مع الأعضاء ، والاحسان مع القلب (٦) .
 وقال آخرون : العدل : رؤية الافتقار إلى الحق ، والاحسان :
 مشاهدة الحق إلى كل شيء في الخلق (٧) .

واعلم أن السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة العدل وجوه :
 الأول : أن العدل في كل شيء : تحصيل ما هو سبب اعتداله ،
 وكمال حاله . ومن المعلوم أن كمال القوى الحساسة في إدراك المحسوسات ،
 وكمال القوى الشهوانية في طلب الأشياء النافعة الجسمانية ، وكمال

-
- (١) سورة النحل ، الآية : ٩٠ .
 (٢) انظر الدر المنثور ٧٩/٣ .
 (٣) انظر تفسير القرطبي ٨٨/١٠ .
 (٤) انظر تفسير القرطبي ٨٨/١٠ .
 (٥) سورة الإمراء ، الآية : ٧ .
 (٦) انظر الدر المنثور ٩٥/٢ .
 (٧) انظر الدر المنثور ٩٥/٢ .

القوى الغضبية في دفع الأشياء الجسمانية المنافية ، وأما القوى العقلية وكمال حالها ، وغاية سعادتها ، فبأن ترسم فيها صور الحقائق ، وأشباه المعقولات كما هي ، حتى تصير القوى العقلية كالمرآة التي تتجلى فيها صور الوجود بتمامها .

ولا شك أن أشرف المعقولات وأعلاها : معرفة جلال الله وقده وعظمته وعزته ، فكان غاية المعقول ، واعتدال الأرواح البشرية ، والقوى العقلية : كونها مقبلة على هذه الحالة ، مستغرقة فيها . فلهذا السبب سميت كلمة لا إله إلا الله « كلمة العدل » .

السبب الثاني : أن هذه الكلمة إنما سميت بكلمة العدل لأن معرفة الله متوسطة بين الإفراط الذي هو التشبيه ، وبين التفريط الذي هو التعطيل . فمن بالغ في الإثبات وقع في التشبيه ، ومن بالغ في النفي وقع في التعطيل ، والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين المتباينين .

السبب الثالث : من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، وعدل على الطريقة التي ألفها بحته وخیاله ، وقع في الضلال . ومن توغل في البحث ، وأراد الوصول إلى كنه العظمة ، وهوية الجلال ، تحير وتردد ، بل عمي ، فإن نور جلال الإلهية مما يعمي أحداق العقول البشرية ، فصار هذان الطرفان مذمومين .

والطريق المستقيم هو : أن يخوض الإنسان البحر المعتدل في البحث ، ويترك التعمق ، وإلى هذا أشار عليه السلام بقوله : « تفكروا في الخلق ، ولا تتفكروا في الخالق » ^(١) .

فهذه هي الوجوه التي لأجلها سميت كلمة لا إله إلا الله كلمة العدل .

فإن قيل : كيف أمر الله تعالى بالعدل في بحر التوحيد ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْتَدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ ^(٢) .

(٢) سورة النساء ، الآية : ١٢٠ .

(١) أخرجه أبو داود عن ابن عمر .

فمن يعجز عن العدل في حق النساء يقدر على العدل في معرفة الأحاد الصمد ؟ .

فالجواب : إنه تعالى أظهر عجزك في الضعيف ، وأقدرك على الشريف ،
لتعرف أن الكل منه سبحانه وتعالى .

* * *

الاسم السادس « الطيب من القول » :

قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (١) .
وأي كلمة توجد أظهر وأطيب من هذه الكلمة وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا
الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (٢) . ثم إن النجاسة الحاصلة بسبب كفر سبعين
سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة .

وتحقيق القول فيه : أن الطيب هو اللذيذ . واللذة هي : إدراك
الملائم . وقد بينا أن الملائم للقوى الحساسة : ادراك المحسوسات ،
والملائم للقوى الشهوانية : جلب النافع الجسماني ، وللقوة الغضبية
دفع المنافي الجسماني ، وأما الملائم للقوة العقلية فهو إدراك جلال الله
وقدسه وعظمته وعزته .

إذا عرفت هذا فنقول : إدراك القوة العاقلة أقوى من إدراك القوة
الحساسة ، وسيأتي شرح هذا فيما بعد إن شاء الله تعالى ، وأما مدركات
القوى الحساسة فهي الاعراض القائمة بالأجسام الكائنة للفاسدة ، وعذرك
القوة العاقلة هي : ذات الله تعالى وعظمته وجلاله . وظاهر أنه كلما
كان الإدراك أقوى والمدرك أشرف كانت اللذة الحاصلة بسبب الإدراك
أشرف وأعلا .

فعلى هذا نسبة اللذة العقلية إلى اللذة الحسية في الشرف والقوة كنسبة

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٤ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٢٨ .

الادراك العقلي إلى الادراك الحسي ، وكنسبة ذات الله تعالى وصفاته في الشرف والتعالي إلى الأعراض القائمة بالأجسام . وكما أنه لا نهاية للنسبة الحاصلة بين هذين الادراكين وبين هذين المدركين ، فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة بين اللذات العقلية الحاصلة بسبب إدراك جلال الله وبين اللذات الحاصلة بسبب الروائح والطعوم وسائر المحسوسات .

وإذا عرفت هذا ظهر أن الطيب المطلق هو : معرفة ألا إله إلا الله ، وذكر لا إله إلا الله ، والاستغراق في أنوار جلال لا إله إلا الله ، فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ ^(١) . والمراد منه : كلمة لا إله إلا الله .

والألف واللام في لفظة (الطيب) للاستغراق — كأنه تعالى ينبه إلى أنه لا لذيق ولا طيب إلا هذا ، وذلك هو الحق ، لأننا بيّنا أن أطيّب المحسوسات بالتنسبة إلى طيب هذه الحالة عدم محض ، فلذلك بين بحرف الاستغراق أن كل طيب ليس إلا ذلك .

* * *

الاسم السابع « الكلمة الطيبة » :

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٢) . اختلفوا في أنه تعالى لم سماها كلمة طيبة على وجوه :

الأول : أنها طيبة بمعنى أنها ظاهرة عن التشبيه والتعطيل ، ولكنها متوسطة بينهما ، مبينة لكل واحدة منهما . كما أن اللبن خارج من بين الفرث والدم ، وهو مبرأ عنهما ، مصفى عن شائبة كل واحد منهما .

(١) سورة الحج ، الآية : ٢٤ .

(٢) سورة ابراهيم ، الآية : ٢٤ .

الثاني : أنها طيبة بمعنى أن صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا طيب المسكن في العقبى ، أما طيب اسمه فلقوله تعالى : ﴿ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ﴾ ^(١) . وأراد به المؤمنين والمؤمنات ^(٢) . وأما طيب المسكن فلقوله : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ ^(٣) .

الثالث : أنها طيبة بمعنى أنها مقبولة ، يقبلها الله تعالى ، وتصعد إليه ، كما قال تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ ^(٤) ، قالوا والسبب في أن هذه الكلمة تصعد إلى الله تعالى بذاتها : أنها طيبة . وقال عليه السلام : « إِنْ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا الطَّيِّبَ » ^(٥) .

وتام التحقيق فيه : أن العقل والروح عاشقان على التحلي والمعرفة والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان ، والمعرفة مجذوبة إلى المعروف ، وإذا تصاعد العرفان إلى المعروف – والعارف ملازم للعرفان – انجذب العارف إلى المعروف ، وصعد إليه . فذلك هو المراد من قوله : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ .

فإن قيل : قال المفسرون : الشجرة الطيبة هي النخلة ^(٦) . فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة ؟

فالجواب عنه من وجوه :

الأول : إن شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان ، بل في البعض دون البعض ، فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ، ومعرفة التوحيد لا تحصل في كل قلب .

الثاني : أن النخلة أطول الأشجار ، وكذا كلمة التوحيد أعلا الكلمات .

الثالث : إن الشجرة الطيبة ثابتة في الأرض ، وفروعها في السماء ،

(١) سورة النور ، الآية : ٢٦ .

(٤) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .

(٢) انظر الدر المشور ٢/٢٥٠ .

(٥) أخرجه أبو داود عن ابن عمر .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧٢ .

(٦) انظر تفسير القرطبي ١٥/٩ .

فكذا أصل الكلمة الطيبة ثابت في القلب ، وهو المعرفة ، وفرعها ثابت في السماء ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ (١) .

الرابع : إن النخلة تحمل كل سنة مرتين ، فكذلك الإيمان يحمل في الدنيا مرة فيثاب المؤمن لأجل إيمانه بأهلية الشهادة والولاية والأمانة . ومرة أخرى في الآخرة ، وهي الجنة الباقية ، والنعمة الدائمة .

الخامس : أن النخلة وإن حصل في وسط ثمرتها نواة لا خير فيها ولا منفعة ، فإن قيمة تلك الثمرة لا تنقص بسبب تلك النواة ، وكذا كلمة التوحيد وإن كان يحصل معها شيء من المعاصي ، إلا أن قيمتها لا تنقص بسبب ذلك : ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٢) .

السادس : إن النخلة أسفلها الذي يقرب من الناس كله شوك ، والثمرة والمنفعة لا تحصل إلا في أعلاها ، فكذلك الدين ، أوله التكاليف الشاقة التي هي كالشوك ، وفي أعلاه الثمرة الحلوة اللذيذة ، التي هي الجنة والمعرفة .

* * *

الاسم الثامن من « القول الثابت » :

قال الله تعالى : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (٣) . وعلة التسمية من وجوه :

الأول : أن المذكور المعلوم ثابت واجب الثبوت لذاته ، ممتنع العدم لذاته . والقول والاعتقاد يتبعان القول والمعتقد ، فلما كان القول والمعتقد

(١) سورة فاطر ، الآية : ١٠ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ .

واجب الثبوت لذاته ، كان القول والاعتقاد كذلك ، فلهذا سماه الله بالقول الثابت .

الثاني : أن هذا القول ثابت لا يؤثر الذنب فيه ، بل هو مؤثر في إزالة الذنب ، لأن الموحّد وإن عظمت ذنوبه ، إلا أنه ترجى له المغفرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) . والكافر وإن عظم كفره إذا رجع من الكفر إلى التوحيد هدم التوحيد كفره .

الثالث : إن هذه الكلمة ثابتة في الآخرة ، لا ترتفع عن العبيد ، وذلك لأن أهل الجنة يشتغلون في الجنة بذكر التوحيد . ألا ترى أن الله أخبر عنهم بقوله : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ (٢) ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ ﴾ (٣) . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ (٤)

الرابع : إنها ثابتة لأن أصلها محكم ، وذلك لأن أول من شهد هذه الشهادة هو الله تعالى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٥) . فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله تعالى فرع على شهادة الله ، وشهادة الله هي الأصل ، فكل شهادة أصلها شهادة الله فهي ثابتة في الدنيا والآخرة .

الخامس : أن الانسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، ومع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء والنار .

أما بيان أن الانسان بدون هذه الكلمة يعمل فيه الماء والنار ، فإن فرعون أغرق في الماء أولاً ، ثم انتقل من الماء إلى النار ، بدليل قوله

(١) سورة النساء ، الآية : ١١٦ .

(٢) سورة فاطر ، الآية : ٣٤ .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٧٤ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٤٣ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية : ١٨ .

تعالى : ﴿ أَغْرَقُوا فَأَدْنُوا نَارًا ﴾ ^(١) . وعجل السامري ^(٢) احرق بالنار أولاً ، ثم نقل من النار إلى الماء . بدليل قوله تعالى : ﴿ لَنُحْرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ ^(٣) .

وأما أنه مع هذه الكلمة لا يعمل فيه الماء ولا النار ، فإن إبراهيم وموسى عليهما السلام كانا مع حقيقة هذه الكلمة ، فلم تعمل النار في إبراهيم ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٤) . ولم يعمل الماء في موسى ﴿ فَلَمَّا خَفَّتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ وَلََّا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ، إِنَّا رَادُّوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ^(٥) .

* * *

الاسم التاسع « كلمة التقوى » :

قال الله تعالى : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ ^(٦) . وفي سبب هذه التسمية وجوه :

الأول : انه لما اتقى صاحب هذه الكلمة ان يصف ربه بما وصفه به المشركون وصفت هذه الكلمة بأنها كلمة التقوى ، ورأس التقوى ، اتقاء لكلمة الكفر .

ثم في هذه الآية إشارة وبشارة .

أما الإشارة فهي أنه تعالى سمي نفسه « أهل التقوى » فقال : ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ ^(٧) . وسمى الموحدين أهل كلمة التقوى فقال : « وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى » . وكأنه تعالى يقول : أنا أهل

(١) سورة نوح ، الآية : ٢٥ .

(٢) هو عجل صنعه موسى السامري من بني إسرائيل ، وعيدوه في غيبة موسى عليه السلام .

(٣) سورة طه ، الآية : ٩٧ .

(٤) سورة الفتح ، الآية : ٢٦ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٦٩ .

(٦) سورة المائدة ، الآية : ٥٦ .

(٧) سورة القصص ، الآية : ٧ .

أن أكون مذكوراً بهذه الكلمة ، وأنت أهل لذكر هذه الكلمة ، فما أعظم هذا الشرف

وأما البشارة فهي أنه تعالى قال : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ^(١) . فأثبت أن الموحدين أحق الخلق بهذه الكلمة ، وهم أهل هذه الكلمة ، وأنه كريم لا يترع الحق عن مستحقه فهذا يدل على أنه لا يترع الإيمان من قلب المؤمن .

الثاني : في بيان أنه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى : هو أن هذه الكلمة واقية لبدنك من السيف ، ولمالك من الاستغنام ، ولذمتك من الجزية ، ولأولادك من السبي ، فإن انضاف القلب إلى اللسان صارت واقية لقلبك عن الكفر ، وإن انضم التوفيق إليه صارت واقية لحوارك عن المعاصي ، ثم قال : « والزهمهم كلمة التقوى » . أي : نحن ألزمنهم بهذه الكلمة التي هي المفتاح لباب الجنة ، فنحن أردناهم أولاً ، وهم ما أرادونا ، فلما أئنة عليهم في فتح هذا الباب ، وتقريره بقوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ ، بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ إِنَّ هَذَا كُمُ لِلْإِيمَانِ ﴾ ^(٢) .

الاسم العاشر « الكلمة الباقية » :

روي عن كثير من المفسرين أنهم قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ ^(٣) . أنها قول لا إله إلا الله ^(٤) . ويدل عليه وجوه :

الأول : مقدمة هذه الآية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ، إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ^(٥)

(٤) تفسير الخازن ، ٨٦/٣ .

(١) سورة الفتح ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الحجرات ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية : ٢٨ .

وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ﴿١﴾ . واعلم أن السبب في علو هذه الكلمة وجوه :

الأول : هو أن القلب إذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك التجلي نور الربوبية ، ونور الربوبية إذا تجلى في القلب استعقب حصول قوة وهيبة ربانية ، ولهذا السبب صار المتحققون بهذه الكلمة يستحقرون الأحوال الدنيوية ، ويستحقرون عظماء الملوك ، ولا يبالون بالقتل ، ولا يقيمون لشيء من طيبات الدنيا رزناً ، وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة .

وانظر إلى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه الكلمة ، كيف لم يلتفتوا إلى قطع الأيدي والأرجل ، وأن محمداً ﷺ لما استغرق في هذا النور لم يلتفت إلى الملكوت ، كما قال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (٢) .

الثاني : في كون هذه الكلمة عالية : استعلاؤها في الدنيا على سائر الأديان ، كما قال تعالى : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٣) .

الثالث : كونها مستعلية على جميع الذنوب ، فلمها تزيل جميع الذنوب ، وشيء من الذنوب لا يزيل نور هذه الكلمة .

* * *

الاسم الثاني عشر « المثل الأعلى » :

قال قتادة في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ (٤) . معناه قول « لا إله إلا الله » .. واعلم أن معنى المثل هنا الصفة ، كذا قال أهل اللغة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٥) .

(٤) سورة النحل ، الآية : ٦٠ .

(٥) سورة الرعد ، الآية : ٣٥ .

(١) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة النجم ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة التوبة ، الآية : ٣٣ .

أي صفتها . فصار المراد من قوله : (والله المثل الأعلى) عين المراد من قوله : (وكلمة الله هي العليا) .

* * *

الاسم الثالث عشر « كلمة السواء » :

قال الله تعالى : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (١) . قال أبو العالية الرباعي : هي كلمة « لا إله إلا الله » . والدليل عليه أنه تعالى قال بعده : ﴿ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً ﴾ (٢) . ولا معنى لهذه الآية إلا ما هو المراد من قول « لا إله إلا الله » . فثبت أن المراد من كلمة السواء هو كلمة « لا إله إلا الله » .

ومما يقرر ذلك : أن جميع العقول معترفة بصحة « لا إله إلا الله » وجميع الألسنة ناطقة بها ، وجميع الرقاب خاضعة لها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَخَسَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (٣) .

وأيضاً يحتمل أنها سميت كلمة السواء لأنها تفيد الاستواء في الدين والعقل والروح ، وتوجب الاستقامة ، وترك الاعوجاج في الأمور .

* * *

الاسم الرابع عشر « كلمة النجاة » :

والذي يدل عليه القرآن والحديث والعقول :

أما القرآن فمن وجهين :

الأول : قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ

(١) و (٢) سورة آل عمران ، الآية : ٦٤ .

(٣) سورة النكبات ، الآية : ٦١ .

ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿١﴾ . فهذه الآية صريحة في أن النجاة لا تحصل بدون الإيمان بلا إله إلا الله ، وتحصل مع الإيمان بلا إله إلا الله .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النِّجَاةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴾ (٢) . النجاة قول لا إله إلا الله .

وأما الاخبار فيدل عليه الاخبار التي ذكرناها في الفصل الثاني ، ونريد ههنا أخباراً أخرى .

أحدها : ما روى جابر بن عبد الله أنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الموحدين فقال : « مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ لَقِيَ اللَّهَ يَشْرِكُ بِهِ شَيْئاً دَخَلَ النَّارَ » (٣) .

وثانيها : عن أبي سعيد الخدري قال : قال عليه الصلاة والسلام : « لَقِّنُوا مَوْتَكُمْ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » (٤) .

وثالثها : رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة بن عبيد الله مقبلاً مغموماً بعد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : مالك ؟ قال : سمعت عن رسول الله ﷺ حديثاً ما منعني أن أسأله إلا القدرة عليه حتى مات ، سمعته يقول : « إِنِّي لِأَعْلَمُ كَلِمَةً لَا يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ إِلَّا أَشْرَقَ لَهَا لَوْنُهُ ، وَنَفَسَ اللَّهُ بِهَا كَرْبَتَهُ » (٥) . فقال : إني لأعلم ما هي ، فقال : وما هي ؟ قال : الكلمة التي أمر بها عمه عند الموت ، وهي : لا إله إلا الله ، فقال طلحة : صدقت ، هي والله .

ورابعها : روى أبو أمامة قال : بعث رسول الله ﷺ أبا بكر ينادي في الناس : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ » (٦) .

(١) سورة النساء ، الآية : ٤٨ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٤١ .

(٣) أخرجه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي .

(٤) أخرجه أبو داود ، وابن ماجه .

(٥) أخرجه أحمد ، عن عمر ، وعن جابر ، وعن عثمان .

(٦) أخرجه أحمد ، والترمذي .

وخامسها : قال معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة : اكشفوا عني سجف القبة حتى أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لم يمنعني أن أحدثكموه إلا أن تتكلموا ، أو تتركوا العمل ، وتردوا النار . سمعته يقول : « من قال : لا إله إلا الله مُخلصاً من قلبه دخل الجنة ، ولم تمسه النار » (١) .

وسادسها : عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، يجري بها لسانه ، ويطمئن بها قلبه ، حرمت عليه النار » (٢) .

وسابعها : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لأبي ذر : « ناد في الناس : من شهد أن لا إله إلا الله وجبت له الجنة » . قال أبو ذر : وإن زنا وإن سرق ؟ قال : « وإن زنا وإن سرق » — حتى قالها ثلاث مرات — فقال الثالثة : « وإن زنا وإن سرق على رغم أنف أبي ذر » (٣) .

وثامنها : روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله ، وفاضت نفسه بعده ، دخل الجنة » (٤) .

* * *

الاسم الخامس عشر « العهد » :

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ (٥) : العهد هو قول لا إله إلا الله . وأقول : الذي يدل على صحة هذا القول وجوه :

(١) أخرجه النسائي ، وابن ماجه ، والطبراني في الأوسط .

(٢) أخرجه مسلم ، وابن ماجه ، والترمذي .

(٣) الحديث مروى عن أبي ذر ، وعن الشيخين مع اختلاف في اللفظ .

(٤) أخرجه الترمذي ، والدارمي ، وابن ماجه ، وأحمد .

(٥) سورة مريم ، الآية : ٨٧ .

الأول : أن قوله : (إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً) نكرة في طرف الثبوت ، وذلك لا يفيد إلا عهداً واحداً ، فهذه الآية تدل على أن تلك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد ، ثم أجمعنا على أن ما سوى الايمان فإن الواحد منه ، بل مجموعة لا يفيد تلك الشفاعة البتة ، فوجب أن يكون العهد الواحد الذي يفيد تلك الشفاعة هو الايمان ، وهو قول : لا إله إلا الله .

والثاني : أن جماعة من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ^(١) . هو عهد الايمان ، بدليل أن لفظ العهد مجمل ، فلما أعقبه بقوله : ﴿ وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ ^(٢) . علمنا أن المراد من ذلك العهد هو الايمان ، وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

والثالث : ان أول ما وقع من العهد قوله تعالى : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ ، قالوا بلى ^(٣) . وذلك في الحقيقة هو قول لا إله إلا الله ، فكأن لفظ العهد محمولاً عليه .

والرابع : أنه تعالى قال : ﴿ إِنْ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ، فَاسْتَبْشِرُوا ببيعِكُمْ ﴾ ^(٤) . فكأن العهد من جانبك عهد الاقرار بالعبودية ، ومن جانب الحق سبحانه وتعالى عهد الكرم والربوبية ، فثبت بهذه الوجوه : أن المراد من قوله : ﴿ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴾ ^(٥) . هو قول : لا إله إلا الله .

(١) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٤١ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية : ١٧٢ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

(٥) سورة مريم ، الآية : ٨٧ .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا ﴾ (١) .
أي قلم لا إله إلا الله (٢) .

* * *

الاسم السادس عشر « كلمة الإستقامة » :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ (٣) .
قال ابن مسعود رضي الله عنه : المراد من قوله تعالى : « استقاموا »

الرب ، ثم أن من المقرين بذلك من أثبت له ندأ أو شريكاً . فالذين نفوا
الشركاء والأضداد هم الذين استقاموا على النهج القويم ، والصراط
المستقيم .

وأعلم أن السلامة في القيامة بقدر الاستقامة في نفي الشركاء ، فمن
الناس من أنكر الوحدانية ، وهو الشرك الظاهر ، والاستقامة في الدين لا
تحصل إلا بنفي الشركاء ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ انْدَادًا
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ومنهم من أقر بالوحدانية في الظاهر ، إلا أنه يقول قولاً يهدم
ذلك التوحيد ، مثل أن يضيف السعادة والنحوسة إلى الكواكب ، ويضيف
الصحة والمرض إلى الدواء والغذاء ، ويضيف الفعل إلى العبد على سبيل
الاستقلال ، فكل ذلك يبطل الاستقامة في معرفة الحق سبحانه وتعالى .

ومنهم من ترك كل ذلك ، ولكنه قد يطبع النفس والشهوة في بعض
الأفعال ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾ (٥)

تعالى حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿ وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ ﴾ ^(١) . وقول يوسف عليه السلام : ﴿ تَوَقَّيْ مُسْلِمًا ﴾ ^(٢) . فان الأنبياء عليهم السلام مبرأون عن الشرك الجلي ، أما الحالة المسماة بالشرك الخفي ، وهو الالتفات إلى غير الله ، فالبشر لا ينفك عنه في جميع الأوقات ، فلذلك السبب تضرع الأنبياء عليهم السلام إلى الله تعالى في أن يصرفه عنهم .

الاسم السابع عشر « مقاليد السموات والأرض » :

قال الله تعالى : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ^(٣) . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله ^(٤) . وأقول : هذا هو الحق ، ويدل عليه وجوه :

الأول : إنه تعالى بين أنه لو كان في الوجود آلهان لحصل الفساد في العالم ، ولاختلت المصالح ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(٥) . فثبت أن الشرك سبب لفساد العالم ، وأن التوحيد سبب لانتظام العالم . فثبت أن مقاليد السموات والأرض هو قول : لا إله إلا الله .

الثاني : إنا بينا أن الشرك سبب لفساد العالم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَّقَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا * إِنَّ دَعْوَا لِّلرَّحْمَنِ وَلَئِن كَانَ كَذَلِكُ كَانَ التَّوْحِيدَ سَبَبًا لِّعَمْرَانِ الْعَالَمِ .

الثالث : أن أبواب السموات لا تفتح عند الدعاء إلا بقول لا إله

- | | |
|---------------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة البقرة ، الآية : ١٢٨ . | (٤) تفسير القرطبي ، ٩٥/١٦ . |
| (٢) سورة يوسف ، الآية : ١٠١ . | (٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ . |
| (٣) سورة الزمر ، الآية : ٦٣ . | (٦) سورة مريم ، الآيتان ، ٩٠ ، ٩١ . |

إلا الله ، وأبواب الجنان لا تفتح إلا بهذا القول ، وأبواب النيران لا تغلق إلا بهذا القول ، وباب القلب لا يفتح إلا بهذه الكلمة ، وأنواع الوسوس لا تندفع إلا بهذا القول ، فكانت هذه الكلمة أشرف مقاليد السموات والأرض ، وأعز مفاتيح الأرواح والنفوس والأجسام والعقول.

* * *

الاسم الثامن عشر « السديد » :

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ ^(١) . قيل في تفسيره : الفعل قد يكون بمعنى الفاعل ، كالسميع بمعنى السامع ، وقد يكون بمعنى المفعول ، كالقتيل بمعنى المقتول ، والجريح بمعنى المجروح . فإذا جعلته بمعنى الفاعل كان معناه : أنه يسد على صاحبه أبواب جهنم . وإذا حملته على معنى المفعول كان معناه : أنه يسد عن أن يضره شيء من الذنوب .

وأيضاً فإن ذا القرنين بنى السد دفعاً لضرر يأجوج ومأجوج ، والله تعالى جعل الإيمان سداً لضرر الشياطين من الجن والانس .

* * *

الاسم التاسع عشر « البر » :

قال الله تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ ^(٢) . والاشارة في الآية : أن من كان مشغولاً بجميع الجوانب والجهات لم يكن صاحب البر ، إنما صاحب البر هو الذي يتوجه إلى صاحب الكعبة : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ ^(٣) . فقله :

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٧٩ .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٠ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ .

(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) إشارة إلى الكثرة والقول بالشركاء ، وقوله : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إشارة إلى التوحيد ، فصار معناه هو المفهوم من قول « لا إله إلا الله » .

* * *

الاسم العشرون « الدين » :

قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ^(١) . وأعلم أن الدين هو : الانقياد والخضوع . قال عليه الصلاة والسلام في دعواته : « يَا مَنْ دَانَتْ لَهُ الرِّقَابُ » ^(٢) . أي خضعت . فقوله : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . أي له الخضوع والخشوع لا لغيره . وإنما يكون كذلك إذا كان واحداً في الالهية ، إذ لو وجد الاهان لكان كما أن الخضوع لأحدهما حاصل كان أيضاً حاصلًا للثاني ، فلا يمكن ثبوت الخضوع إلا لله فقط ، فالخسر دل على أنه لا إله سواه ، ولا معبود إلا إياه .

* * *

الاسم الحادي والعشرون « الصراط » :

قال تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ^(٣) . وقال حكاية عن رسوله : ﴿ وَإِنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ ^(٤) . وقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ^(٥) .

وأعلم أن هذا الصراط المستقيم هو قول لا إله إلا الله . وذلك

(١) سورة الزمر ، الآية : ٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ، عن ابن عمرو بن العاص .

(٣) سورة الفاتحة ، الآية : ٦ .

(٤) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .

(٥) سورة الشورى ، الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .

باعتبار أن حدوث كل محدث ، وامكان كل ممكن ، يحوجه إلى المؤثر الذي يوجده وينقله من العدم إلى الوجود ، وإذا كان الموجد والمدبر واحداً ، فمتى نسبت حدوث المحدثات ، ووجود الممكنات إلى قدرته كان ذلك صراطاً مستقيماً ، وطريقاً قويمًا . ومتى نسبت حدوث محدث ، ووجود ممكن إلى غير قدرته ، كان ذلك طريقاً معوجاً ، وسبيلاً منحرفاً . فثبت أن الصراط المستقيم لا يحصل لا باسناد كل الحوادث والممكنات إلى تخليق الله وتكوينه ، وإسناد الكل إليه ، فهو التوحيد . فثبت أن الصراط المستقيم هو قولنا : لا إله إلا الله .

* * *

الاسم الثاني والعشرون « كلمة الحق » :

لقله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ ۖ ﴾ ^(١) . يعني قول لا إله إلا الله ^(٢) .

* * *

الاسم الثالث والعشرون « العروة الوثقى » :

قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ۖ ﴾ ^(٣) . يعني : بكلمة لا إله إلا الله ^(٤) .

* * *

(١) سورة الزخرف ، الآية : ٨٦ .

(٢) تفسير الخازن ، ١٥/٤ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٦ .

(٤) انظر القرطبي : ١٩٥/١٧ .

الاسم الرابع والعشرون « كلمة الصدق » :

لقله تعالى : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ ^(١) . أي
قول لا إله إلا الله ^(٢) .

* * *

فهذا جملة الكلام في لا إله إلا الله .. اللهم بحق أسمائك الطاهرة
المقدسة ، احفظ بحفظك معرفة هذه الكلمة في قلوبنا ، وذكرها على
ألسنتنا ، يا أرحم الراحمين .

* * *

(١) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

(٢) انظر القرطبي : ٩٧/١٥ .

الفصل الرابع

في

الأشياء التي تشبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

الأول : النار :

الأول : أن الله تعالى شبه الايمان بالنار ، فقال : ﴿ مَثَلَهُمْ كَمَثَلِ
الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ ^(١) . وقال في آية أخرى : ﴿ وَمَا يُوقِدُونَ
عَلَيْهِ فِي النَّارِ ﴾ ^(٢) . وفيه إشارتان :

الأولى : كما أن النار إذا عرضت عليها الذهب المغشوش أحرقت
كل ما فيه من الغش ، وبقي جوهر الذهب سليماً عن الاحتراق ، فكذلك
يوم القيامة ، إذا عرض المذنب على النار أحرقت ذنوبه ومعاصيه ، وبقي
إيمانه سليماً من الاحراق .

الثانية : أن النار تحرق كل شيء ، وكذا الايمان إذا قوي نوره
أحرق ما سوى محبة الله تعالى عن القلب ، ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ
فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ^(٣) .

* * *

الثاني : النور :

النوع الثاني من الأمور التي شبه الله بها الايمان : النور ، قال الله
تعالى : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ ^(٤) . . . والسبب في أنه تعالى أضاف المعرفة
إلى نفسه وجوه :

(٣) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧ .

(٤) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

الأول : أنه تعالى إنما أضاف المعرفة إلى نفسه قطعاً للأطماع عنها ، وذلك لأنها جوهرة نفيسة ، وقيمتها رفيعة ، وصاحبها غافل ، والشيطان محتال مكار ، وأجل مقصوده أن يسلب المعرفة من العارف ، ويحول بينه وبينها ، والله تعالى برحمته جعل المعرفة في حمايته ، حتى ينقطع طمع إبليس عنها .

وتحقيقه : أنه لما قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ^(١) . فلما أضاف العباد إلى نفسه انقطع طمع إبليس عنهم فقال : ﴿ فبِعِزَّتِكَ لَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴾ ^(٢) . فهنا لما أضاف الإيمان إلى نفسه بقوله : (مثل نوره) لا جرم كان إبليس منقطعاً عنه .

الثاني : أن كل ما للعبد فهو للحق ، لأنه حصل بتخليقه وإيجاده ، فإذا بلغ العبد درجة يشهد فيها هذه الحالة فقد كملت حاله ، فعند ذلك قيل له : كل ما له فهو لنا ، وكل ما لنا فهو له . والمعرفة التي له فهي لنا ، فلا جرم اضافها إلى نفسه فقال : (مثل نوره) .

الثالث : أن تخصيص الشيء باضافته إلى الله تعالى سبب لتشريفه ، كما في قوله : ﴿ وَطَهَّرْ بَيْتِي ﴾ ^(٣) . وقوله : ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ^(٤) . وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ^(٥) . فكذا هنا ، اضافة المعرفة إلى نفسه تدل على أنها أشرف الخلق والتشريفات .

ثم ههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال : ﴿ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ^(٦) .

والجواب من وجوه :

- | | |
|----------------------------------|---------------------------------|
| (١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ . | (٤) سورة الأعراف ، الآية : ٧٣ . |
| (٢) سورة ص ، الآيتان : ٨٢ - ٨٣ . | (٥) سورة الجن ، الآية : ١٩ . |
| (٣) سورة الحج ، الآية : ٢٦ . | (٦) سورة النور ، الآية : ٣٥ . |

الأول : أن البيت إذا كان فيه سراج لم يتجاسر اللص على دخوله ، مخافة أن يفتضح ، وكذا القلب ، إذا كان فيه سراج المعرفة لم يتجاسر الشيطان على دخوله مخافة أن يفتضح .

الثاني : إن البيت إذا كان فيه سراج اهتدى صاحبه إلى طلب الامتعة ، فكذلك القلب إذا كان فيه سراج المعرفة ، استدل صاحبه به إلى الشروع في الطاعات .

الثالث : إذا كان في البيت سراج انتفع بضيائه كل أحد من غير أن ينقص من استضاءة صاحبه بنوره شيئاً . وكذا كل قلب كان فيه سراج المعرفة انتفع بنوره غير صاحبه ، من غير أن ينقص من نور صاحبه شيء .

الرابع : أن السراج إذا كان في البيت ، وكان موضوعاً في كوة مسدودة بزجاجة ، إضاء داخل البيت وخارجه ، وكذلك سراج المعرفة يضيء القلب وخارج القلب ، حتى يظهر نوره على الأذنين والعينين واللسان ، فيظهر فنون الطاعات في هذه الأعضاء ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام : « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي عظمي نوراً ، وفي نخي نوراً » ^(١) .

الخامس : أن البيت إذا كان فيه سراج كان صاحبه مستأنساً مسروراً ، فإذا طفىء السراج صار مستوحشاً ، فكذلك القلب ، مادام فيه سراج المعرفة ، كان صاحبه مستأنساً مسروراً ، فإذا فارقه والعياذ بالله صار حزيناً مغموماً ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ ^(٢) .

السادس : أن جرم السراج صغير ، وضوؤه منتشر عن كل جانب ، فكذلك ضوء المعرفة ينتشر من القلب إلى جميع الجوانب كما قال الله

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ، عن ابن مسعود .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٥ .

تعالى : ﴿ وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَأَيْنَمَا تُولُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ﴾ (١) .
وخصوصاً من الجانب العلوي ، قال الله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِيمُ
الطَّيِّبُ ﴾ (٢) .

السؤال الثاني : ما الفرق بين سراج الدنيا الذي هو الشمس وبين
سراج المعرفة ؟ .

والجواب : الفرق من وجوه :

الأول : أن الشمس تحجبها غمامة ، والمعرفة لا تحجبها سبع سموات .

الثاني : أن الشمس تغيب بالليل ، والمعرفة لا تغيب لا ليلاً ولا نهاراً ،
بل هي في الليل أكد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ
وَطْناً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى
بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ (٤) . وقال : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ (٥) .

الثالث : إن الشمس تفتنى . قال الله تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ (٦)
وأما المعرفة فلا تفتنى . قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ (٧) .
أي إلا ما حصل برضاه ..

الرابع : الشمس تنكشف ، والمعرفة لا تنكشف .

الخامس : الشمس تسود الأشياء والمعرفة تبيضها .

السادس : الشمس تحرق ، والمعرفة تنجي من الحرق .

السابع : الشمس تارة تضر وتارة تنفع ، والمعرفة تنفع ولا تضر
البتة .

الثامن : الشمس منفعتها في الدنيا ، والمعرفة منفعتها في الدنيا والآخرة .

- | | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| (١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٥ . | (٥) سورة القدر ، الآية : ٣ . |
| (٢) سورة فاطر ، الآية : ١٠ . | (٦) سورة التكويد ، الآية : ١ . |
| (٣) سورة المزمل ، الآية : ٦ . | (٧) سورة القصص ، الآية : ٨٨ . |
| (٤) سورة الإسراء ، الآية : ١ . | |

التاسع : الشمس في السماء زينة لأهل الأرض ، والمعرفة زينة لأهل السماء .

العاشر : الشمس في الفوق ، وهي تضيء ما تحتها ، والمعرفة في قلب المؤمن ، وهو في التحت ، وهي تضيء ما فوقها .

الحادي عشر : بالشمس ينكشف وجود الخلق ، وبالمعرفة ينكشف وجود الخالق . والدليل عليه قول أمير المؤمنين عليّ حين قيل له : هل رأيت ربك ؟ فقال : لا أعبد رباً لم أره .

الثاني عشر : الشمس تقع على العدو والولي ، والمعرفة ليست إلا للولي .

الثالث عشر : ولاية الشمس في الدنيا دون الآخرة ، أما المعرفة فإنها في الدنيا ذات بداية ، وفي الآخرة ذات ولاية .

وأيضاً فإن الكوكب مصباح الخلق والمعرفة مصباح الحق .

وأيضاً فإن الكواكب تطلع من خزانة الفلك ، والمعرفة تطلع من خزانة الملك .

وأيضاً فإن الكواكب علامة ، والمعرفة كرامة .

وأيضاً فإن الكواكب موضع نظر المخلوقين ، والمعرفة موضع نظر رب العالمين . قال عليه السلام : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ^(١) .

السؤال الثالث : ما الفرق بين السراج والمعرفة ؟ .

الجواب من وجوه :

الأول : إن سراج الدنيا مشوب بنوره بالظلمة ، وهي الدخان الذي يعلوه ، وسراج المعرفة نوره صاف ، لا ظلمة معه .

(١) أخرجه الطبراني ، وأبو يعلى ، عن عمران ابن حصين .

الثاني : إن سراج الدنيا يحرق نفسه ليتنفع به غيره ، وسراج المعرفة يحرق الذنب ، ويروح السر ، وينور الصدر .

الثالث : إن سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس ، وأما سراج المعرفة والتوحيد فإنه يضمحل نور الشمس من نوره .

الرابع : أن سراج الدنيا لا وفاء له ، يحرق من أوقده ، ومن أمده بالفتيلة ، كما يحرق من لم يوقده ولم يمدد بالفتيلة ، وسراج المعرفة ذو وفاء ، لا يحرق صاحبه البتة ، بل ينجيهِ من الحرق ، فشتان ما بين السراجين .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تشبيه المعرفة بالمصباح ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن المصباح تضره الرياح ، والمعرفة يضرها الوسواس .
والشبهات .

الثاني : أن المصباح لا يبقى بغير الدهن ، والمعرفة لا تبقى بغير التوفيق .

الثالث : لا بد للمصباح من حافظ يتعهده ، ولا بد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله ورحمته ..

السؤال الخامس : ما الحكمة في تشبيه القلب بالزجاجة ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الذهب والفضة وإن كانا نفيسين رفيعين إلا أنهما كثيفان ، يوقعان الحجاب ، والزجاجة وإن كانت قليلة القيمة إلا أنها لطيفة صافية لا توقع الحجاب ، فإنه يرى ظاهرها من باطنها وبالعكس ، والله تعالى ذكر هذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه .

الثاني : أنه ليس لآنية الزجاجة خطر ، إنما الخطر في الآنية ، فكذا ليس لقلبك خطر ، إنما الخطر للإيمان .

الثالث : إذا انكسرت الزجاجة لم تصلح إلا بادخال النار والاذابة ، وكذا القلب إذا فسد لم يصلح إلا بادخال النار والاذابة ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا * ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ (١) .

الرابع : أن صاحب الذهب والفضة لا يخاف كسرها لعلمه أن قيمتها لا تبطل بسبب الانكسار ، وأما صاحب الزجاجة فإنه على حذر ووجل ، لعلمه بأنها إذا انكسرت بطلت قيمتها ، فكذلك المؤمن ينبغي أن يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة ، ولا يكون على أمن كصاحب الذهب والفضة .

الخامس : شبهه بالزجاجة لأن النور من الزجاجة أحسن وأتم ضياء منه في الذهب والفضة . والزجاجة لقلّة قيمتها ، واستعدادها للانكسار والبطلان صار النور فيها أحسن ، وهو اشارة إلى قوله : « أنا عند المنكسرة قلوبهم » .

السؤال السادس : ما الحكمة في تشبيه الزجاجة بالكوكب الدري ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الكوكب الدري فيه لأهل الأرض هداية كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ، وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) . ولأهل السماء زينة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴾ (٣) . وكذلك قلب المؤمن ، سبب لهداية صاحبه إلى الخيرات ، وأيضاً نزهة لأهل السماء ، فإنه روي أن معرفة العارف تضيء لأهل السماء كما تضيء الكوكب الدري لأهل الأرض .

الثاني : الكوكب لا قدرة للشياطين عليه ، بل الكوكب يحرق الشياطين ، قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ (٤) .

(١) سورة مريم ، الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .

(٢) سورة الصافات ، الآية : ٦ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ١٦ .

(٤) سورة الملك ، الآية : ٥ .

فكذلك قلب المؤمن لا سبيل للشياطين عليه ، بل نور قلبه وإيمانه يحرق الشياطين ، ولذلك قال : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ ^(١) . وقال : ﴿ الَّذِينَ يُوسِسُونَ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ^(٢) . ولم يقل : في قلوب الناس . وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ ^(٣) . فذلك التذكر هو ظهور نور الايمان . وقوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ ﴾ اشارة إلى احتراق وساوس الشياطين .

السؤال السابع : ما الحكمة في أنه شبه القلب بالكوكب لا بالشمس والقمر ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الكوكب مستقر بالنهار ويظهر بالليل ، والعارف مستقر بالنهار ، فإذا أظلم الليل ظهر بالخدمة والتضرع .

الثاني : أن الكوكب زينة السماء ، والقلب زينة العارف .

الثالث : أن الكوكب مصابيح السماء ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ ^(٤) . والقلب مصباح العارف ، قال تعالى : ﴿ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مَصَابِيحٌ ﴾ ^(٥) .

السؤال الثامن : هل في تشبيه الايمان بالسراج بشارة لأهل الايمان ؟

الجواب من وجوه :

الأول : أن الشمس سراج استوقده الله تعالى للفناء ، ثم لا يقدر أحد على اطفائه ، والمعرفة سراج استوقده الله تعالى للبقاء ، فكيف يقدر إبليس على اطفائه ؟

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢ .

(٢) سورة الناس ، الآية : ٥ .

(٣) سورة التور ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٢٠١ .

الثاني : استوقد الله تعالى سراج الشمس في السماء ، فهي تزيل الظلمة عن بيتك ، فإذا استوقد شمس المعرفة في قلبك كيف لا تزول ظلمة المعصية عنك مع شدة القرب ؟ .

الثالث : من استوقد سراجاً فعليه تعهده ، والله هو الموقد لسراج المعرفة ، قال الله تعالى : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ ^(١) . فلا جرم أوجب على رحمته امداده وتعهده ، وعواطف تعهده عاطفة حافظة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلِّلُ الذَّكَّرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(٢) .

الرابع : اللص إذا رأى السراج في البيت مستوقداً لا يقصد ذلك البيت بالسرقة ، والله تعالى أوقد سراج المعرفة في قلبك ، فكيف يقدر لص الشيطان من القرب منك ؟ .

الخامس : المجوس أوقدوا ناراً ولا يريدون اطفاءها ، والملك القدوس أوقد نار المعرفة والمحبة في قلبك ، فكيف يرضى باطفائها وإبطالها .

السادس : من أراد أن يستوقد سراجاً احتاج إلى سبعة أشياء : إلى زناد ، وحجر ، وحقاق ، وكبريت ، ومسرجة ، وفتيلة ، ودهن . والعبد إذا طلب أن يوقد سراج المعرفة فلا بد من زناد الجهد ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ ^(٣) وحجر التضرع : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ^(٤) . وأما الحراق فهو إحراق النفس بمنعها من شهواتها قال تعالى : ﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ^(٥) . والرابع كبريت الانابة : ﴿ وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ ^(٦) . والخامس : مسرجة الصبر : ﴿ وَاصْبِرُوا ، إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ^(٧) . والسادس : فتيلة الشكر : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ لَتَعْبُدُونَ ﴾ ^(٨)

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ . | (٥) سورة النازعات ، الآية : ٤٠ . |
| (٢) سورة الحجر ، الآية : ٩ . | (٦) سورة الزمر ، الآية : ٥٤ . |
| (٣) سورة النكبات ، الآية : ٦٩ . | (٧) سورة الأنفال ، الآية : ٤٦ . |
| (٤) سورة الأعراف ، الآية : ٥٥ . | (٨) سورة النحل ، الآية : ١١٤ . |

والسابع : دهن الرضاء بقضاء ربك ، قال تعالى : ﴿ واصبرْ لحكم ربك ﴾ (١) . وقال عليه السلام : « الرضا بالقضاء باب الله الأعظم » (٢) فهذه الحرفة متعلقة بك في حفظ عهد العبودية وإذا وفيت بعهد العبودية فهو أولى أن يفني بعهد الربوبية كما قال تعالى : ﴿ وأوفُوا بعهدي أوفٍ بعهْدِكُمْ ﴾ (٣) . فتحفظ هذه المعرفة في قلبك ، وهذا الذكر في لسانك ، واجعلها نوراً باقياً معك في القبر والظلمات والقيامة .

* * *

النوع الثالث : التراب :

من الأمور التي شبه الله تعالى الايمان بها : التراب . قال تعالى : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ (٤) .

ووجه المشابهة : أن التراب ذو أمانة ، من أودع فيه شيئاً سلم اليه أضعافاً ، قال الله تعالى : ﴿ في كل سُنْبُلَةٍ مائة حبة ﴾ (٥) . فكذا المؤمن إذا عمل عملاً سلم اليه أضعاف ذلك العمل يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ إنما يُوفى الصّابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٦) .

الثاني : من خاصية الأرض أنها يطرح عليها كل قبيح ، ويخرج منها كل مليح ، فكذا أرض الايمان ، يطرح عليها قبائح الكفر والذنوب ، ثم يخرج منها ثمرات المغفرة والرحمة والرضوان : ﴿ فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ﴾ (٧) .

(١) سورة الطور ، الآية : ٤٨ .

(٢) لم نعر على هذا النص فيما لدينا من مصادر .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٤٠ .

(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٥٨ .

(٥) سورة البقرة ، الآية : ٢٦١ .

(٦) سورة الزمر ، الآية : ١٠ .

(٧) سورة الفرقان ، الآية : ٧٠ .

الثالث : من خاصية الأرض أنها كالأم الحاضنة لك ، فهي كاللمهد ، قال الله تعالى : ﴿ أَلَسَمُ نَجْعِلِ الْأَرْضَ مَهَاداً ﴾ ^(١) . وكان الخزانة لك ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ ^(٢) . وكالأم المشفقة عليك : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ ^(٣) فكذا الايمان . منه يحصل جميع منافعك في الدنيا والعقبى .

* * *

النوع الرابع : الماء :

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الايمان والقرآن : الماء . قال الله تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ ^(٤) . أي الايمان والكفر . فالزبد الكفر ، والايمان الماء . وفي تقرير وجه المشابهة وجوه .

الأول : الماء يزيل النجاسة عن الثوب ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ^(٥) . ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهَّرْ ﴾ ^(٦) . فكذلك الايمان يزيل نجاسة الكفر والمعصية عن القلب ، قال عليه الصلاة والسلام : « الاسلام يجب ما قبله » .

الثاني : ان الله تعالى سمي الماء المنزل من السماء رحمة ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ^(٧) . وسمى القرآن رحمة فقال : ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٨) . وجعل

(٥) سورة الفرقان ، الآية : ٤٨ .

(١) سورة النبأ ، الآية : ٦ .

(٦) سورة المدثر ، الآية : ٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٩ .

(٧) سورة الأعراف ، الآية : ٥٧ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٥٥ .

(٨) سورة يونس ، الآية : ٥٧ .

(٤) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

الايمان رحمة وسبباً للرحمة فقال : ﴿ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْاِيْمَانَ ﴾ (١) .
وقال : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ (٢) . فلا جرم شبه
القرآن والايمان بالماء لهذا السبب .

الثالث : أن الله تعالى سمي القرآن مباركاً فقال : ﴿ وهذا ذكرٌ
مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (٣) . وقال في الماء : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
مُبَارَكاً ﴾ (٤) . فلا جرم شبه الايمان وكذا القرآن بالماء لكون كل
منهما مباركاً .

الرابع : أن الماء شفاء للنفوس ، والقرآن شفاء للقلوب ، قال الله
تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) .
فهو شفاء لقلوبهم ، ورحمة لذنوبهم .

الخامس : كما أنه تعالى هو الذي أنزل الماء من السماء ، فلا يقدر
عليه أحد سواه

السادس : كما أن الله تعالى اذا أنزل المطر من السماء لم يقدر أحد
على دفعه ، فكذلك لما أنزل القرآن من السماء لم يقدر أحد على دفعه ،
وادخال الباطل عليه ﴿ وانهُ كتابٌ عزيزٌ • لا يأتيه الباطلُ من بينِ
يديْهِ ولا من خَلْفِهِ ﴾ (٦) .

السابع : أن المطر لا يقدر مخلوق أن يحصي عدد قطراته ، فكذا
القرآن لا يحيط أحد بكمال أسرارهِ ، ولطائف حقائقهِ .

الثامن : كما أن المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ، ثم يسيل في
الأرض نهراً نهراً ، وبحراً بحراً ، فكذلك القرآن ، ينزل من السماء آية
آية ، ونجماً نجماً ، ثم صار المجموع أنهاراً وبحاراً . وفي الخبر : أن
القرآن بحر عميق لا يدرك قعره .

-
- | | |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ . | (٤) سورة ق ، الآية : ٩ . |
| (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٥٤ . | (٥) سورة الاسراء ، الآية : ٨٢ . |
| (٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٥٥ . | (٦) سورة فصلت ، الايتان : ٤١ ، ٤٢ . |

التاسع : كما أن المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لاقطلع الأشجار وخرّب الديار ، وكان الفساد فيه أكثر من الصلاح ، فكذا القرآن لو نزل جملة واحدة ، لضلت فيه الأفهام ، وتاهت فيه الأروهام ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَاهُ هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ (١) .

العاشر : كما أن الله تعالى يحيي الأرض بعد موتها بالمطر ، فكذلك أحيا القلوب الميتة بالقرآن . قال الله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ ﴾ (٢) .

الحادي عشر : كما أن المطر الواحد يقع على الأرض فيخرج منه الورد والريحان ، وعلى أرض أخرى فيخرج منه الشوك والسم ، فكذا القرآن ، يقع على قلب المؤمن المطيع فيخرج منه ورد العبودية ، وريحان الطاعة ، ويقع على قلب الكافر ، فيخرج منه سم الكفر ، وشوك العصية . قال الله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ﴾ (٣) .

الثاني عشر : أن في الماء النازل من السماء غنية عن جميع المياه ، فكذلك في القرآن غنية عن جميع الكتب والعلوم .

الثالث عشر : أن الماء الكثير اذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة هلك ، فكذلك القرآن ، اذا تكلم فيه واحد بغير علم . قال عليه الصلاة والسلام : « مَن فُسِّرَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَّبِعْهُ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ » (٤) .

الرابع عشر : كما أن الشرب فوق الكفاية يضر ولا ينفع ، فكذلك الكلام في القرآن فوق الفهم والفظنة يضر ولا ينفع . قال عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أَنْ أَكَلِّمَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُمْقِهِمْ » (٥) .

(١) سورة الحشر ، الآية : ٢١ .

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ١٢٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٩ .

(٤) أخرجه مسلم ، عن ابن عمر .

(٥) أخرجه ابن ماجه ، والترمذي عن ابن مسعود .

الخامس عشر : إذا نزل المطر زال القحط ، وظهر النبات والغذاء والقواكه ، فكذلك كان قبل نزول القرآن قحط الدين ، فلما نزل القرآن زال القحط في الدين ، وظهرت أنواع الغذاء والقواكه للروح ، وهو بيان التوحيد والنبوة والشرائع .

السادس عشر : كما أن الماء يطفىء النار ، فكذلك الايمان والقرآن يطفئان عن المؤمن الذي هو حامل القرآن والايمان نار جهنم ^(١) .

* * *

النوع الخامس : الحبل :

من الأشياء التي شبه الله بها الايمان : الحبل . قال الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ ^(٢) . ووجه المشابهة من وجوه .

الأول : أن من أراد أن يصعد من الأسفل الى العلو ، وخاف من الانزلاق ، فإذا تمسك بحبل أمن من ذلك الخوف . فالعبد إذا أراد أن يصعد من سفلى البشرية الى عالم الجلال والكبرياء ، وخاف أن ينزل قدم عقله ، فإذا تمسك بالقرآن أمن منه .

الثاني : أن الأعمى إذا أراد الذهاب إلى موضع ، فإن كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل ممدود ، وتمسك بذلك الحبل ذهب فارغاً من كل خوف ، فكذلك العقول البشرية كالأعمى في سلوك سبيل التوحيد والمعرفة ، فإذا تمسكت بالقرآن أمنت من الخوف .

الثالث : أن من سقط في البئر فطريق تخليصه أن يرسل اليه حبل ، حتى يتعلق به ويصعد ، وينجو من المهالك ، فالأرواح البشرية وقعت في هاوية عالم الأجسام ، فالملك الرحيم أرسل اليها حبل القرآن ، فمن

(١) وردت أحاديث كثيرة في هذا . (٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

تعلق به وصعد نجاً ، ومن لم يتعلق به ففي بئر الظلمات وقع وكان من الهالكين .

* * *

النوع السادس : شجرة الزيتون :

من الأشياء التي شبه الله تعالى بها الايمان : شجرة الزيتون . قال الله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴾ ^(١) . وذكروا في وجه التشبيه أمرين :

الأول : أنه تعالى إنما شبه الايمان بهذه الشجرة ، لأن هذه الشجرة في أكثر الأمور إنما تنبت في الأمكنة المطهرة ، فكذلك المعرفة لا تستقر في كل قلب ، بل في القلوب المطهرة .

الثاني : أن شجرة الزيتون يتولد من ثمرتها ذلك الدهن الذي هو في غاية الصفاء ، فكذلك قلب المؤمن يتولد منه الايمان والمعرفة ، وهما أصفى الأنوار وأشرفها .

* * *

تكريم المؤمنين :

واعلم أن الله قد وعد المؤمنين بعشر كرامات :

الأولى : المغفرة . قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ ^(٢) . والمعنى : إن قبلوا الايمان ، وتركوا الكفر .

وثانيها : الأمن ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ^(٣) .

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٠ . (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٨٢ .

(٣) سورة الأنفال ، الآية : ٣٨ .

وثالثها : الهداية . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ (١) .

ورابعها : الزيادة . قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (٢) .

وخامسها : الفلاح . قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٣) .

وسادسها : الثبات . قال الله تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ (٤) .

وسابعها : الشفاعة : قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (٥) . يعني قول لا إله إلا الله .

وثامنها : اصلاح الاعمال . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٦) إلى قوله : ﴿ يَصْلُحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ (٧) .

وتاسعها : البشرى . قال تعالى : ﴿ وَابْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٨) .

وعاشرها : كلام الله تعالى ورؤيته يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ (٩) . ﴿ وَجْهٌ يُومَلُّ نَاضِرَةٌ ﴾ إلى ربها ناظرة ﴾ .

* * *

(٦) سورة الأحزاب ، الآية : ٧٠ .

(٧) سورة الأحزاب ، الآية : ٧١ .

(٨) سورة فصلت ، الآية : ٣٠ .

(٩) سورة القيامة ، الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(١) سورة يونس ، الآية : ٩ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ٢٦ .

(٣) سورة المؤمنون ، الآية : ١ .

(٤) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٧ .

(٥) سورة طه ، الآية : ١٠٩ .

الفصل الخامس

في

شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا إله إلا الله

وهي وجوه

البحث الأول :

زعم جماعة من النحويين أن هذا الكلام فيه حذف وإضمار . ثم ذكروا فيه وجهين : أحدهما : التقدير : لا إله لنا إلا الله . والثاني : لا إله في الوجود إلا الله .. واعلم أن هذا الكلام غير سديد لوجوه :

أما الأول : فلائنه لو كان التقدير : لا إله لنا إلا الله ، لم يكن هذا الكلام يفيد التوحيد الحق ، إذ يحتمل أن يقال : هب أنه لا إله لنا إلا الله . فلم قلتم : إنه لا إله لجميع المحدثات الممكنات إلا الله ؟ ولهذا السبب فإنه تعالى لما قال : ﴿ وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ^(١) . قال بعده : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ^(١) . لأنه لما قال : ﴿ وَالْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ بقي للسائل أن يسأل ويقول : هب أن إلهنا واحد ، فلم قلتم أن إله الكل واحد ؟ فلاجل ازالة هذا السؤال قال تعالى بعده : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . ولو كان المراد من قوله (لا إله إلا هو) : أنه لا إله لنا إلا هو كان هذا تكراراً محضاً .

وأما الثاني : فهو قولهم : التقدير : لا إله في الوجود إلا الله . فنقول : وأي حامل يحملكم على التزام هذا الاضمار ؟ بل نقول : حمل هذا الكلام على ظاهره أولى من ذلك الاضمار الذي ذكرتم . وذلك

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٦٣ .

لأننا لو ألزمتنا ذلك الاضمار كان معناه : لا إله في الوجود إلا هو ، فكان هذا نفياً لوجود الاله . أما لو أجرينا الكلام على ظاهره كان هذا نفياً لماهية الاله الثاني . ومعلوم أن نفي الماهية أولى وأقوى من اثبات التوحيد في نفي الوجود ، فثبت أن اجراء الكلام على ظاهره أولى .

فإن قيل : إن نفي الماهية غير معقول ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بسواد ، كنت قد حكمت بأن السواد انقلب إلى نقيضه ، وصيرورة الشيء عين نقيضه غير معقول . أما إذا قلت : السواد غير موجود كان هذا كلاماً معقولاً ، فلهذا السبب أضمرنا فيه هذا الاضمار .

فالجواب : أن قولكم نفي الماهية غير معقول باطل . فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود ، لكن الوجود من حيث هو وجود ماهية ، فإذا نفيت الماهية المسماة بالوجود ، وإذا كان كذلك صار نفي الماهية أمراً معقولاً ، وإذا عقل ذلك فلم لا يجوز اجراء هذه الكلمة على ظاهرها ، فإنك إذا قلت : السواد ليس بموجود فإنك ما نفيت الماهية ، وما نفيت الوجود أيضاً ، وإنما نفيت موصوفية الماهية بالوجود ، فنقول : موصوفية الماهية بالوجود ، هل هي أمر مغاير للماهية وللوجود أم لا . فإن كانت مغايرة لهما كانت تلك المغايرة ماهية ، فكان قولنا : السواد ليس بموجود نفياً لتلك الماهية المسماة بالموصوفية ، وحتى يعود الكلام المذكور . وأما إن قلنا : أن موصوفية الماهية بالوجود ليست أمراً مغايراً للماهية وللوجود امتنع توجيه النفي إليها ، وإذا امتنع ذلك بقي النفي متوجهاً إما إلى أي ماهية ، وإما إلى الوجود ، وحتى يحصل غرضنا من أن الماهية يمكن نفيها ، وإذا كان الأمر كذلك صح قولنا : لا إله إلا الله حقاً وصدقاً من غير اضمار .

البحث الثاني :

قال النحويون : قولنا لا إله إلا الله ارتفع لأنه بدل من موضع « لا » مع الاسم . وبيانه : أنك إذا قلت : ما جاءني رجل إلا زيد ، فزيد مرفوع بالبديلة ، لأن البدل هو الاعراض عن الاول ، والأخذ بالثاني ، فصار التقدير : ما جاءني إلا زيد . وهذا معقول ، لأنه يفيد نفي المجيء عن الكل إلا عن زيد ، وأما قوله : جاءني القوم إلا زيد ، فههنا البديلة غير ممكنة ، لأنه يصير التقدير : جاءني إلا زيد ، وذلك يقتضي أنه جاءه كل أحد إلا زيداً . وذلك محال ، فظهر الفرق .

* * *

البحث الثالث :

اتفق النحويون على أن محل « الا » في هذه الكلمة محل غير . والتقدير : لا إله غير الله . وهو كقول الشاعر :

وكل أخ مفارق له أخوه لعمر أيبك إلا الفرقدان

والمعنى : كل أخ غير الفرقدين فإنه يفارقه أخوه . قال الله تعالى : ﴿ لو كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ ^(١) . قالوا : التقدير : لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدتا . والذي يدل على صحة ما قلناه : أنه لو حملنا « إلا » على الاستثناء لم يكن لا إله إلا الله توحيداً محضاً ، لأنه يصير تقدير الكلام : لا إله يستثنى عنهم الله . فيكون هذا نفيّاً لآلهة يستثنى عنهم الله ، ولا يكون الآلهة بحيث يستثنى عنهم الله ، بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون اثباتاً لذلك ، وهو كفر . فثبت أنه لو كانت كلمة « إلا » محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا : لا إله إلا الله توحيداً محضاً . ولما اجتمعت العقلاء على أنها تفيد التوحيد المحض وجب حمل « إلا » على معنى « غير » حتى يكون معنى الكلام : لا إله غير الله .

* * *

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٢ .

البحث الرابع :

قال جماعة من الأهلويين : الاستثناء من النفي لا يكون اثباتاً .
احتجوا عليه بوجهين :

الأول : أن الاستثناء مأخوذ من قولك : ثبتت الشيء عن جهته ،
إذا صرفته عنها ، فإذا قلت : لا عالم ، فهنا أمران : أحدهما الحكم
بهذا العدم ، والثاني نفس هذا العدم ، ثم إذا قلت عقيبه : إلا زيد ،
فهذا الاستثناء يحتمل أن يكون عائداً إلى الحكم بذلك العدم ، ويحتمل
أن يكون عائداً إلى نفس ذلك العدم . فإذا كان عائداً إلى الحكم بالعدم ،
لم يلزم تحقق الثبوت ، لأن سبب الاستثناء يزول بالحكم بالعدم ، وعند
زوال الحكم بالعدم يبقى المستثنى مسكوتاً عنه ، غير محكوم عليه لا بالنفي
ولا بالاثبات ، وحينئذ لا يلزم الثبوت . أما إن كان تأثير الاستثناء في
صرف العدم ومنعنه ، فحينئذ يلزم تحقيق الثبوت ، لأنه لما ارتفع العدم
وجب حصول الوجود ، ضرورة أنه لا واسطة بين التقيضين . وإذا
ثبت هذا فنقول : عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده إلى
نفس العدم ، وهذا يدل عليه وجهان :

الأول : أن الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية ، لا على
الموجودات الخارجية ، فإنك إذا قلت : العالم قديم ، فهذا يدل على كون
العالم قديماً في نفسه ، ولكن إذا قلنا : العالم حادث ، لزم كون العالم
قديماً وحادثاً ، وذلك محال ، بل هذا الكلام يدل على حكمك بقديم
العالم . وإذا كانت الألفاظ وضعت دالة على الأحكام الذهنية لا على
الموجودات الخارجية كان صرف ذلك الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى
من صرفه إلى نفس ذلك العدم .

والوجه الثاني : في بيان عود الاستثناء إلى الحكم بالعدم أولى من عوده
إلى نفس ذلك العدم ، وذلك لأن عدم الشيء في نفسه ووجوده لا يقبل
تصرف هذا القائل ، بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود والعدم ،
وإذا كان كذلك كان عود الاستثناء إلى الحكم أولى من عرده إلى
المحكوم به .

الحجة الثانية : في بيان كون الاستثناء من النفي ليس باثبات هو أنه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة للاستثناء مع أنه لا يقتضي الثبوت . قال عليه الصلاة والسلام : « لا نكاح إلا بولي » ، و « لا صلاة إلا بطهور » . ويقال في العرف : لا عز إلا بالمال ، ولا مال إلا بالرجال . ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط . أقصى ما في الباب أن يقال : قد ورد هذا اللفظ في صورة أخرى ، وكان المراد أن يكون المستثنى من النفي اثباتاً ، لأننا نقول : أنه لا بد وأن يكون مجازاً في إحدى الصورتين ، إلا أننا نقول : إذا قلنا : أنه لا يقتضي أن يكون الخارج من النفي اثباتاً ، بحيث افاد ذلك ، احتمال أن تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر ، ولا يكون ذلك تركاً لما دل اللفظ عليه ، فإن قلنا : أنه يقتضي أن يكون الخارج من النفي اثباتاً بحيث لا يفيد ذلك ، لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ دليلاً عليه ، ومعلوم أن الأول أولى ، لأن اثبات الأمر الزائد بدليل زائد ليس فيه مخالفة الدليل ، أما ترك ما دليل عليه يكون مخالفاً للدليل فثبت بما ذكرنا أن الاستثناء من النفي لا يكون اثباتاً . فإذا ثبت هذا كان قولنا « لا إله إلا الله » تصريحاً بنفي سائر الآلهة ، ولا يكون اعترافاً بوجود الله . وإذا كان كذلك لم يكن مجرد هذا القول كافياً في صحة الإيمان .

وهنا إشكال آخر ، وهو أننا قد دللنا على أن « إلا » بمعنى غير في هذا الموضع ، وإذا كان كذلك كان قولنا « لا إله إلا الله » معناه : لا إله غير الله . فيصير المعنى نفي إله يغير الله ، ولا يلزم من نفي ما يغير الشيء اثبات هذا ، وحينئذ يعود الإشكال .

والجواب من وجهين :

الأول : أن اثبات الإله سبحانه كان متفقاً عليه بين سائر العقلاء بدليل قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ^(١) . فكان ذلك مفروغاً عنه ، متفقاً عليه ، إلا أنهم

(١) سورة لقمان ، الآية : ٢٥ . وسورة الزمر ، الآية : ٣٨ .

كانوا يشبتون الشركاء والأنداد . فكان المقصود من هذه الكلمة نفى الأضداد والأنداد ، فأما القول بإثبات الاله للعالم فذلك من لوازم العقول ..

الثاني : إذا سلمنا أن هذه الكلمة كما دلت على نفى سائر الآلهة دلت على إثبات الهية الله تعالى ، إلا أننا نقول : هذه الدلالة تكون حاصلة بوضع الشرع لا بمفهوم أصل اللغة . فهذا تمام القول في هذا المقام .

* * *

البحث الخامس :

اعلم أنه يجوز أن يقال : لا رجل في الدار ، وأن يقال : لا رجل إلا في الدار . أما على الوجه الأول فإنه يوجب نفى الرجال بالكلية ، والدليل عليه أن قولنا « لا رجل » يقتضي نفى ماهية الرجل ، ونفي الماهية يقتضي انتفاء كل افراد الماهية ، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبت الماهية ضرورة أنه متى ثبت فرد من أفراد الماهية فقد ثبتت الماهية لا محالة . وأما قولنا « لا رجل إلا في الدار » فهو نقيض قولنا « لا رجل في الدار » ولكن قولنا : لا رجل إلا في الدار يفيد ثبوت رجل واحد ، فقولنا لا رجل في الدار وجب أن يفيد عموم النفي ، حتى يتحقق التناقض بين القولين .

والحاصل أن قولنا : « لا رجل » أقوى في الدلالة على عموم النفي من قولنا « لا رجل » مع أن كل واحد منهما يفيد عموم النفي ، ولأجل أن كل واحد منهما يفيد العموم قرئ : ﴿ لا ريبَ فيه ﴾ ^(١) . بالقراءتين ، وكذا قوله : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ﴾ ^(٢) . ولأجل أن البناء على الفتح أقوى في الدلالة على العموم اتفقوا عليه في قولنا « لا إله إلا الله » .

* * *

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٧٧ . (٢) سورة البقرة ، الآية : ١٩٧ .

البحث السادس :

من الناس من يقول : أن تصور الاثبات مقدم على تصور النفي ،
بدليل أن الواحد منا يمكنه أن يتصور الاثبات وان لم يخطر بباله معنى
النفي والعدم ، ويمتنع عليه أن يتصور العدم والنفي إلا وقد تصور أولاً
الاثبات ، وذلك لأن العدم المطلق غير معقول ، بل العدم لا يعقل إلا إذا
أضيف إلى معين ، فيقال : عدم الدار ، وعدم الغلام ، فثبت أن تصور
الاثبات أصل ومتقدم ، وتصور النفي متأخر وفرع . وإذا ثبت هذا
فما السبب في أن جعل النفي الذي هو الفرع متقدماً ، والاثبات الذي
هو الأصل مؤخراً ؟ .

والجواب : أن في تقديم النفي هنا على الاثبات اغراضاً :

الأول : أن نفي الربوبية عن غيره ثم اثباتها له أكد في الاثبات من
اثباتها له من غير نفيها عن غيره ، كما أن قول القائل : ليس في البلد
عالم غير فلان أقوى في باب المدح من قولنا : فلان عالم البلد .

الثاني : أن لكل انسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد لا يتسع باشتغال
شيئين دفعة واحدة ، فبقدر ما يبقى مشغولاً بأحد الشيئين يبقى محروماً
من الشيء الثاني ، فقولنا « لا إله إلا الله » اخراج لكل ما سوى الله
عن القلب ، حتى إذا صار القلب خالياً عن كل ما سوى الله ، ثم خطر
فيه سلطان الله ، أشرق نوره اشراقاً تاماً ، وكمل استيلاؤه عليه كمالاً
قوياً .

الثالث : أن النفي الحاصل بـ « لا » يجري مجرى الطهارة ، والاثبات
الحاصل بـ « إلا » يجري مجرى الطهارة والصلاة ، فكما أن الطهارة
مقدمة على الصلاة ، فكذا وجب تقديم (لا إله) على قولنا (إلا الله) ،
ويجري مجرى تقديم الاستعاذة على القراءة ، فكما أن الاستعاذة مقدمة
على قراءة القرآن ، فكذا هذا .

وأيضاً : إن من أراد أن يحضر الملك في بيت وجب عليه أن يقدم

تطهير ذلك البيت عن الأقدار ، فكذا هنا . وعن هذا قال المحققون :
النصف الأول من هذه الكلمة تنظيف الأسرار ، والنصف الثاني جلالة
الأنوار عن حضرة الملك الجبار .. والنصف الأول انفصال ، والنصف
الثاني اتصال .. والنصف الأول إشارة إلى قوله : ﴿ ففروا إلى الله ﴾ ^(١)
والنصف الثاني إشارة إلى قوله : ﴿ قل الله ، ثم ذرهم ﴾ ^(٢) .

* * *

البحث السابع :

إن للقاتل أن يقول : أن من عرف أن للعالم صانعاً قادراً عالماً ،
موصوفاً بجميع الصفات المعتبرة في الالهية ، من الصفات السلبية والثبوتية ،
فقد عرف الله تعالى معرفة تامة ، ثم أن علمه بعدم الاله الثاني لا يزيده
علماً بحقيقة ذات الاله وصفاته ، لأن عدم الاله الثاني ليس عبارة عن
وجود الاله الاول ، ولا وجود صفات من صفاته ، ثم إننا أجمعنا على
أن علمه بذات الاله وصفاته لا يكفي في تحقق النجاة ، بل ما لم يعلم عدم
الاله الثاني لا يحصل العلم المعتبر في النجاة ، فما السبب في إن كانت
معرفة ذات الله تعالى وصفاته غير كافية في تحقق النجاة ، بل كان العلم
بعدم الثاني معتبراً في تحقق النجاة ؟ .

والجواب : أنه بتقدير أن يكون للعالم إلهان ، فالعبد لا يعلم أنه
عبد لهذا الاله أو عبد لذلك الاله ، أو عبد لهما معاً ، فحينئذ لا يكون
جازماً بكونه مشغلاً بشكر مولاه وخالقه ، بل يجوز أن يكون عابداً
لغير خالقه ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن جازماً في تلك العبودية ،
وتلك الطاعة ، أما إذا عرف أنه لا إله للعالم إلا إله واحد ، فحينئذ يكون
جازماً بكونه مشغلاً بعبودية مولاه وخالقه ، فلهذا السبب لم تحصل
النجاة والفوز بالدرجات إلا بمعرفة التوحيد .

* * *

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٠ . (٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ .

البحث الثامن :

أن المكلف إذا تم النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ، ثم مات ولم يجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه : لا إله إلا الله ، فهنا لا شك في أنه يموت مؤمناً ، لأنه أدى ما وجب عليه ، ولم يجد مهلة للتلفظ بهذه الكلمة ، فأما إذا تم النظر والاستدلال في معرفة الله ، ووجد من الوقت ما أمكنه أن يقول فيه « لا إله إلا الله » ثم لم يقل ، ثم مات ، فهذا الشخص هل مات مؤمناً أم لا ؟ .

من الناس من قال : إنه مات كافراً ، لأن صحة الايمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه . ومن الناس من قال : أنه مؤمن ، لأجل أنه حصل له العرفان التام ، وفاسق لأجل أنه كان مأموراً بذكر هذه الكلمة وما ذكرها . والدليل على أنه مؤمن قوله عليه الصلاة والسلام : « يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من ايمان » ^(١) . فهذا الشخص قلبه مملوء من الايمان ، فكيف لا يخرج من النار ؟ .

* * *

البحث التاسع :

من الناس من قال : تطويل المدة من كلمة (لا) من قولنا : لا إله إلا الله ، مندوب اليه مستحسن ، لأن المكلف في زمان التمديد يستحضر في ذهنه جميع الأضداد والأنداد وينفيها ، ثم بعد ذلك يعقب ذلك بقوله : إلا الله ، فيكون ذلك أقرب إلى الاخلاص والكمال .

ومنهم من قال : بل يترك التمديد أولى ، لأنه ربما مات في زمان اللفظ بـ « لا » قبل الانتقال إلى كلمة « إلا الله » .

والذي عندي : أن المتلفظ بهذه الكلمة إن كان يتلفظ بها لينتقل من الكفر إلى الايمان فترك التمديد أولى ، حتى يحصل الانتقال من

(١) أخرجه الطبراني عن أبي موسى وابن أبي حاتم مرفوعاً .

الكفر إلى الإيمان على أسرع الوجوه . وإن كان المتلفظ بها مؤمناً ، وإنما يذكرها لتجديد هذه الكلمة ، فالتمديد أولى ، حتى يحصل في زمان التمديد صور الأنداد والأضداد . وعلى التفضيل في الحاضر ، ثم ينفىها ، ويعقبها بقوله : (إلا الله) . فيكون الاقرار بالالهية أصفى وأكمل .

* * *

البحث العاشر :

إن الناس في هذه الكلمة على مذاهب وطبقات :

فأدناها طبقة من قالها ليحقق دمه ، ويحز ماله ، على ما اقتضاه موجب قوله عليه الصلاة والسلام : « أمرتُ أنْ أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني مالههم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » . وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون . فكل من تعلق بهذه الكلمة نال من بركاتها ، وأحرز حظاً من فوائدها ، فإن طلب بها الدنيا نال الأمن فيها ، والسلامة من آفاتِها ، وإن قصد بها الآخرة جمع بين الحظين ، وأحرز بها السعادة في الدارين ^(١) .

والطبقة الثانية : الذين ضموا إلى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد . واعلم أن الاعتقاد لا يكون علماً ، لأن العقد ضد الانحلال والانشراح . والعلم عبارة عن انشراح الصدر . قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ ^(٢) . فثبت أن صاحب التقليد لا يكون علماً ولا عارفاً ، وهل يكون مسلماً ؟ فيه الخلاف المشهور بين الأئمة ، والله أعلم .

الطبقة الثالثة : الذين ضموا إلى الاعتقاد بالقلب معرفة الدلائل

(١) أي : أن العبادة في الدنيا بالظاهر ، وفي الآخرة بالسرائر . انظر (أسرار أركان الإسلام ، ص ٢٥) .

(٢) سورة الزمر ، الآية : ٢٢ .

الاقناعية القوية لذلك الاعتماد ، إلا أن تلك الدلائل لا تكون برهانية يقينية ، بل إقناعية ظنية .

الطبقة الرابعة : الذين سلموا وأثبتوا تلك العقائد بالدلائل القطعية ، والبراهين اليقينية ، إلا أنهم لا يكونون من أرباب المشاهدات والمكاشفات ، ولا من أصحاب مطالعة الآيات .

ثم اعلم أن الاقرار باللسان درجة واحدة ، وأما الاعتقاد بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه ، ودوامه وعدم دوامه ، وكثرة تلك الاعتقادات وقتلتها ، فإن القلب ربما كان مقلداً في مجرد أن الله تعالى واحد ، وربما زاد عليه وكان مقلداً في ذلك وفي أن صانع العالم قادر على كل شيء .

واعلم أنه كلما كان وقوف الانسان على هذه المطالب أكثر ، كان تشويش أمر التقليد عليه أكثر ، وذلك لأن الطالب إذا حصل له شعور بهذه المطالب ، وحصل له وقوف على هذه المباحث ، مال إلى العلم ، وترك التقليد ، فيعسر عليه التقليد . أما المرتبة الثالثة ، وهي مرتبة تقوية الاعتقاد بالدلائل الإقناعية ، فمراتب الخلق فيها متفاوتة غير مضبوطة . وأما المرتبة الرابعة وهي : الترقى من الدلائل الإقناعية إلى البراهين القطعية فالأشخاص الذين يكونون واصلين إلى هذه الدرجة يكونون في غاية القلة ، ونهاية الندرة ، لأن ذلك يتوقف على معرفة شرائط البراهين ، واستعمالها في المطالب ، وذلك في غاية العزلة ، وأما المرتبة الخامسة ، وهي مرتبة أهل المشاهدات والمكاشفات فنسبتهم إلى أصحاب البراهين القطعية كنسبة أصحاب البراهين إلى عوام الخلق .

واعلم أن عالم المكاشفات لا نهاية له ، لأنه عبارة عن سفر العقل في مقامات الجلال الالهي ، ومدارج عظمتة ، ومنازل كبريائه وقده ، وإذا كان لا نهاية لهذه المقامات ، فكذلك لا نهاية للسفر في تلك المقامات .

واعلم أن الانسان إذا انكشفت له أسرار « لا إله إلا الله » أقبل على الله ، وأخلص في عبادته ، ولم يلتفت إلى أحد سواه ، فلا يرجو غيره ،

ولا يخاف سواه ، ولا يرى النفع والضراء إلا منه ، فانقطع بالكلية عن
دونه ، وتبرأ من الشرك الباطن ، كما تبرأ من الشرك الظاهر ، وذلك
كله موجب كلمة التوحيد .

ولهذا السبب لما قال لمحمد ﷺ : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ ^(١)
قال بعده : ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ ^(٢) . والمعنى — والله أعلم — :
أن الأمر بالاستغفار لتقصير وقع في موجب كلمة « لا إله إلا الله » .
أما لغفلة تحول دونه ، أو لعارض شغل عنه ، وهو معنى قوله عليه
الصلاة والسلام : « إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين
مرة » ^(٣) . وقد روي « مائة مرة » . وفي الحديث وجوه .

الأول : أن المراد بالغين : ما يغشي قلبه من غفلة ، أو يعرض من
فترة ، بحكم الطبع البشري ، فكان عند ذلك يفرغ إلى الاستغفار .

الثاني : أنه كان عليه الصلاة والسلام أبداً في الترقى ، فإذا انتقل
إلى درجة أعلى من الدرجة المنتقل عنها كان يستحقها في العبودية ، فكان
يستغفر الله منها .

الثالث : أنه ربما لاح له شيء من تجلي عالم الغيب فيستعظم تلك
الدرجة ، ويستبهج بها ، ثم يصير تعاضدها ، وابتهاجها بها ، شاعلاً عن
الاستغراق في المبتهج به ، فكان يستغفر الله من ذلك .

الرابع : أن كل ما لاح له من عالم الغيب كان يعلم أن الذي لاح
له إنما لاح له بقدر قوته وطاقته ، وكان يعلم أن قدر عقله وطاقته بالنسبة
إلى جلال الله وعلو كبريائه كالعدم ، فحينئذ يعلم أن الذي لاح
له من كمال الغيب بالنسبة إلى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة إلى الوجود ،
فكان يستغفر الله من أن يصفه بما يصل إليه قلبه وعقله وفكره وذكره
وخاطره .

* * *

(١) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

(٢) أخرجه أبو يعلى والترمذي ، عن أبي هريرة .

الفصل السادس

في فضل المؤمن

اعلم أن الله سمى المؤمنين ثالث نفسه في عشرة مواضع : في المراقبة ، والولاية ، والموالة ، والصلاة ، والعزة ، والطاعة ، والمشاقة ، والأذى ، والالتجاء ، والشهادة .

* * *

المقام الأول : في المراقبة :

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ ^(١) . هدد المذنبين برؤية المؤمنين أعمالهم ، كما هددهم برؤية نفسه ، ورؤية رسوله . وفيه لطائف :

الأولى : روي أن عمر رضي الله عنه خرج ليلة ، فسمع امرأة تقول لابنتها : يا ابنتاه ! قومي فامزجي اللبن بالماء . فقالت ابنتها : أوليس قد نهانا عن ذلك أمير المؤمنين ؟ قالت : لا يرانا أمير المؤمنين . قالت : أفلا يرانا رب العالمين ؟ فلما سمع عمر ذلك خطبها في الغد لابنه ، فكان عمر بن عبد العزيز من خير حفدتها .

الثانية : امرأة شاطرة كانت بمكة ، قالت : لا أبرح حتى أفتن طاووس اليماني ^(٢) . وكان رجلا جميلا ، فعرضت نفسها عليه مراراً

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠٥ .

(٢) طاووس : إمام أهل زمانه من تلاميذ ابن عباس وكان مولى . توفي عام ٤٠ للهجرة .

حتى ظننت أنها تعجبه ، فقال طاووس : احضري الليلة ، فجاء بها إلى
المقام فقال لها : اضطجعي هنا . فقالت : سبحان الله ، ألا يرانا الناس ؟
فقال طاووس : أليس يرانا الله في كل مكان ؟ فتابت .

الثالثة : قال أبو عبد الرحمن العتبي : خرجت ليلة فإذا أنا بجارية
جميلة ، فأردتها ، فقالت : ويلك ، أما لك من زاجر من عقل إن لم
يكن لك ناه من الدين ؟ فقلت لها : لا يرانا إلا الكواكب . فقالت :
وأي من مكوكبها ؟ .

الرابعة : قال حاتم الأصم ^(١) : راع نفسك في ثلاثة أوقات : إذا
عملت بالجوارح فاذكر نظر الله اليك ، وإذا قلت بلسانك فاذكره سمع
الله لك ، وإذا كنت ساكناً فاذكر علم الله فيك ، لأنه قال : ﴿ إِنِّي
مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ^(٢) .

الخامسة : ثلاثة نفر حضروا عند بعض الزهاد ، وقالوا : أوصنا .
فقال لواحد : ألسنت تقول : أنه عالم ؟ فقال : بلى . قال : إياك أن يعلم
منك شيئاً فيفضحك به غداً . وقال للثاني : أليس هو بصير ؟ قال :
بلى . قال : إياك أن يراك على عمل تستحي منه يوم القيامة . وقال للثالث :
أليس هو سميع ؟ قال : بلى . قال : احذر أن يسمع منك شيئاً يردك
عن باب رحمته بسببه .

السادسة : قال سفيان : من وجد من نفسه ثلاثة أشياء فليحكم عليها
بالسعادة : الهيبة للعزيز الجبار ، والحرمة للنبي المختار ، والحياء من
الأبرار والأخيار .

(١) حاتم الأصم : عابد ، زاهد ، مجاب الدعوة . مات عام ٢٣٠ هـ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٤٦ .

المقام الثاني : الولاية :

فإنه تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فقال : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(١) . قيل : نزلت في عبد الله بن سلام حين شكوا من عداوة اليهود له بعد اسلامه ، فنزلت . وقال محمد بن اسحاق : نزلت في عبادة بن الصامت ، قال : يارسول الله ! تبرأت من حلف اليهود ، وتوليت الله ورسوله والمؤمنين عامة ، وفيه نكت :

الأولى : أن يوسف عليه السلام قال : ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ ^(٢) . فوجد الملك والعز بسبب ذلك القول الذي هو قائله ، وههنا قال الله تعالى للمؤمنين : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . فأولى أن يرجو المؤمنون بذلك الجنة والمغفرة .

الثانية : قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ﴾ . يعني حافظكم وناصركم « ورسوله والذين آمنوا » . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « المرء مع من أحب » . ثم أن كل مسلم يحب الله ، فوجب بحكم ذلك الخبر أن يكون المسلم أبداً مع حفظ الله لا يفارقه ، بسبب أنه أحب الله ، فكيف يفارقه حفظ الله مع أن الله وليه وحافظه وناصره ؟ .

الثالثة : هذه الآية دلت على أن الصحابة يحبوننا ، لأن الله تعالى جعل المؤمنين أوليائنا ، وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ^(٣) . ثم أكد ذلك بقوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ^(٤) . ثم أمرنا أن نحب الصحابة بدليل قوله : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ ^(٥) . فثبت بمجموع هاتين الآيتين حصول المحبة

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

(٣) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .

(٥) سورة التوبة ، الآية : ١٠٠ .

بيننا وبين الصحابة ، والحبيب لا يرضى بعذاب حبيبه ، قيل ذلك على أن جمهور الصحابة والتابعين وسلف المؤمنين يكونون شفعاء ذنوب المؤمنين .

* * *

المقام الثالث : المولاة :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(١) وههنا نكت :

الأولى : حكم أن مولى المؤمنين هو : الله ، وجبريل ، وصالح المؤمنين . ثم اسقط شركة جبريل والمؤمنين فقال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ^(٢) . وقال في حق الكافرين : ﴿ مَلَاؤَكُمْ النَّارَ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ ^(٣) . ثم قال : ﴿ وَبَشِّرِ الْمَصِيرَ ﴾ ^(٤) . فمن كان الله مولاة فلا يذل ولا يخزي ، ومن كان المؤمنون مولاة فلا يضيع ولا يشقى . قال الكفار لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أحد : لنا عزى ولا عزى لكم . فقال عمر رضي الله عنه : « لنا مولى ولا مولى لكم » . فتزل على وفق قوله : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ^(٥) .

الثانية : أن الله تعالى سمي النار مولى الكافرين فقال : ﴿ النار هي مولاكم ﴾ . وإنما سمي النار مولاهم لأنها لا تترك أفعالهم .

الثالثة : قال بعضهم : من كان ربه مولاة لا يعذب ، ومن كان ناصره مولاة لا يغلب ، ومن كان هاديه مولاة لا يضل ، ومن كان ربه مغنيه لا يشقى ، ومن كان ربه مولاة لا يضيع ولا يحتاج إلى أحد .

* * *

(١) سورة الحديد ، الآية : ١٥ .

(٢) سورة التحريم ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة محمد ، الآية : ١١ .

(٤) سورة الحج ، الآية : ٧٨ .

المقام الرابع : الصلاة :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ ^(١) . فجعل المؤمنين ثالث نفسه في الصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام : « هتوني ، هتوني » . فقالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فما حظنا ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ ﴾ ^(٢) . والاشارة أنه صلى على الرسول عليه السلام في الدنيا ، فما ترك المذنبين حتى صلى الله أيضاً عليهم ، فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين من المغفرة .

الثانية : الصلاة من الله تعالى على ثلاثة أوجه : عامة ، وخاصة ، وخاصة الخاصة . فالعامة قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ﴾ ، والخاصة قوله : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ ^(٣) . وخاصة الخاصة قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

الثالثة : جعل الله أهل بيت النبي عليه الصلاة والسلام مساوين له . في خمسة أشياء في المحبة ، قال تعالى : ﴿ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ^(٤) وقال لأهل بيته : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ^(٥) والثاني : في تحريم الصدقة . قال عليه الصلاة والسلام : « حرمت الصدقة عليّ وعلى آل بيتي » . والثالث في الطهارة قال الله تعالى : ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَى ﴾ ^(٦) . وقال لأهل بيته : ﴿ وَيُطَهِّرْكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ^(٧) .

(١) سورة الشورى ، الآية : ٢٣ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٣ .

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٦ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٢ .

(٣) سورة البقرة ، الآية : ١٥٧ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

الرابعة : السلام . قال : « السلام عليك أيها النبي » . وقال في أهل بيته : ﴿ سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِينَ ﴾ ^(١) .

الخامسة : في الصلاة على الرسول وعلى آله كما في آخر التشهد .

* * *

المقام الخامس : العزة :

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٢) .
وههنا نكت :

الأولى : عزة الله عزة الربوبية ، وعزة الرسول عزة النبوة ، وعزة المؤمنين عزة التلطف بكلمة « لا إله إلا الله » . ثم كما أن عزة الله وعزة رسوله لا يقبلان اللذل ، فكنلك عزة المؤمنين لا تقبل اللذل .

الثانية : لله عزة الانشاء والتكوين ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ ^(٣) . وللرسول عزة الدنيا حين أشار للقمر فانشق ببركة دعائه ، وللمؤمنين عزة الايمان والشهادة . ثم ان الاشياء تكونت عند قوله « كن » . والقمر انشق عند دعاء الرسول ، فخرجوا أن يحصل الفقراء والرحمة للمؤمنين عند كلمة الشهادة .

الثالثة : عز المؤمن في أن قيده المعرفة ، وضيده الجنة ، وعبيده الرؤية ، فإذا كان العبد المؤمن رب كاف ، وكتاب شاف ، ورسول واف ، اسمه اسم الله ، ولسانه شاهد الله ، ونفسه طالبة مرضاة الله وقلبه محل نظر الله ، وسراجه معرفة الله ، وشهادته محبة الله ، وبصيرته مشتاقة إلى رؤية الله فحقيق أن يكون عزه متصلاً بعز الله .

الرابعة : لله العزة سواء أوجد أو أعدم ، وللرسول بالولاية سواء بلغ أو سكت ، فكنلك المؤمن له العزة سواء أطاع أو عصى .

(١) سورة الصافات - الآية : ١٣٠ . (٢) سورة يس ، الآية : ٨٢ .

(٣) سورة المنافقون ، الآية : ٨ .

- الخامسة : لله العزة بالولاية ، لقوله : ﴿ إِنَّ وَلِيَّيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) . وللرسول بالولاية أيضاً لقوله : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ^(٢) . وللمؤمنين العزة أيضاً بالولاية لقوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ^(٣) .
- السادسة : لله العزة بالعلو والعظمة ، لقوله : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ^(٤) . وللرسول بالرفعة ، لقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ^(٥) . وللمؤمنين بالقبول والرحمة ، لقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ ^(٦) .
- السابعة : لله عزة المعبودية ، لقوله : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ ^(٧) . وللرسول عزة التبوعية ، لقوله : ﴿ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ^(٨) . وللمؤمنين عزة العبودية ، لقوله : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ ^(٩) .
- الثامنة : لله عز الاستغناء ، ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ ^(١٠) . وللرسول عز الاغناء : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ ^(١١) . وللمؤمنين عز الاغناء : ﴿ وَإِنْ يَتَقَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَمِعَتَهُ ﴾ ^(١٢) .
- التاسعة : قال علي رضي الله عنه : من أراد عزاً بغير ذل ، وهيبة بغير سلطان ، وغنى بغير مال ، وحسباً بغير نسب ، فليخرج نفسه من ذل المعصية إلى عز الطاعة .
- العاشرة : قال هارون الرشيد لمنصور بن عمار : من أعقل الناس ، وأجهلهم ، وأغناهم ، وأعزهم ؟ فقال : أعقلهم محسن خائف ، وأجهلهم مسيء آمن ، وأغناهم القانع ، وأعزهم الأتقياء .

* * *

- | | |
|----------------------------------|----------------------------------|
| (١) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٦ . | (٧) سورة الأنبياء ، الآية : ٩٢ . |
| (٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٦ . | (٨) سورة الأعراف ، الآية : ١٥٨ . |
| (٣) سورة التوبة ، الآية : ٧١ . | (٩) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ . |
| (٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥٥ . | (١٠) سورة محمد ، الآية : ٣٨ . |
| (٥) سورة الشرح ، الآية : ٤ . | (١١) سورة الضحى ، الآية : ٨ . |
| (٦) سورة الزمر ، الآية : ٥٣ . | (١٢) سورة النساء ، الآية : ٢٣٠ . |

المقام السادس : الطاعة :

قال الله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (١) . وههنا نكت :

الأولى : في الخبر : ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح ، وقال : « لا تجتمع أمتي على ضلالة » (٢) . وقال عليه الصلاة والسلام : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ » (٣) . وقال : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » (٤) . وكل ذلك يدل على أنه كما يجب طاعة الله وطاعة الرسول ، فكذلك يجب طاعة أولي الأمر من المؤمنين .

الثانية : قيل : بقاء الدنيا بسيوف الأمر أو لسان العلماء ، فعليكم بطاعتهم إلا في معصية الله .

* * *

المقام السابع : المشاققة :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) . الآية : وههنا نكت :

الأولى : الله بحور عظيمة يهلك العبد فيها إن لم يكن له معتصم يتمسك به ، فجعل التوحيد سبباً للنجاة من البدعة ، لقوله : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (٦) . وجعل الاجماع سبباً للنجاة من الفتن ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ثم قال : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ .

(١) سورة النساء ، الآية : ٥٩ . (٤) أخرجه الشيخان ، عن أنس .

(٢) أخرجه أبو داود ، عن أبي هريرة . (٥) سورة النساء ، الآية : ١١٥ .

(٣) أخرجه الشيخان ، عن عبد الله بن مسعود . (٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٢ .

الثانية : قال عليه الصلاة والسلام : « سبع من الهدى ، وفيهن الجماعة ، من خرج منهم فقد خرج من الجماعة : لا تشهدوا على أهل قبلتكم بكفر ولا بشرك ، واتركوا سرائرهم إلى الله . وصلوا على من مات من أهل القبلة ، وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف كل بر وفاجر . وجاهدوا مع كل خليفة . ولا تخرجوا على أئمتكم بالسيف . وادعوا لهم بالصلاح ولا تدعوا عليهم . وجانبوا الأهواء كلها ، فإن أولها وآخرها باطل » .

الثالثة : سئل واحد عن القلب السليم فقال : هو الذي دينه بلا شك ، ومذهبه بلا هوى ، وعمله بلا رياء ، وبدنه بلا خصم .

* * *

المقام الثامن : في الأذى :

يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ * وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بِهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿ (١) .

اعلم أن الله تعالى نهى عن إيذاء المؤمن كما نهى عن إيذاء نفسه وإيذاء رسوله ، ثم أكد ذلك فقال : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : « المؤمنون قوم بررة ، هم المتحابون المتبادلون . والمنافقون قوم فجرة ، هم المتقاطعون المتدابرون » (٤) . وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها : « إن الله يبغض الفاحش والمتفحش » (٥) وفيه نكت :

(١) سورة الأحزاب ، الآيتان : ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٨٣ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٦٣ .

(٤) لم نعر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر .

(٥) أخرجه الطبراني ، عن أبي هريرة .

الأولى : قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ^(١) ولم يقل : ويلعنونهم ويؤذونهم .

الثانية : قال عليه الصلاة والسلام : « إن الله رفيق يحب الرفقاء » ^(٢) .

الثالثة : عاتب الله نوحاً حين دعا على قومه بالهلاك فقال : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ ^(٣) . ولم يقل : أعداء بعض . وقال ابن عمر رضي الله عنه : « إذا لعن العبد دابة تقول الدابة : لعن الله أعصانا لربه » .

الرابعة : قال تعالى لرسوله : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ^(٤) . وقال : ﴿ خُذِ الْعَقْبُ وَامْرُءًا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ ^(٥) . ونهى عن الهمز واللمز فقال : ﴿ وَيَلَّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ ^(٦) . وقال : ﴿ وَلَا تَطْغِ كُلَّ حِلاَفٍ مَبِينٍ ﴾ . هَمَزٌ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ ^(٧) . وقال لموسى وهارون : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسًا ﴾ ^(٨) . وقال تعالى : ﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ﴾ ^(٩) .

* * *

المقام التاسع : الالتجاء :

قال الله تعالى : ﴿ وَلَسِمَ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ﴾ ^(١٠) . فمدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي في

-
- (١) سورة غافر ، الآية : ٧ .
(٢) لم نعث على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر .
(٣) سورة التوبة ، الآية : ٧١ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٥٩ .
(٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٩ .
(٦) سورة الهمزة ، الآية : ١ .
(٧) سورة القلم ، الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٨) سورة طه ، الآية : ٤٤ .
(٩) سورة النازعات ، الآية : ١٨ .
(١٠) سورة التوبة ، الآية : ١٦ .

ذلك بالمؤمنين ، لأن المنافقين كانوا يتولون اليهود ، ويتخذونهم وليجة وبطانة ، فعليك أن تتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة وبطانة . وفيه نكت :

الأولى : أنه مدح ابراهيم حيث تبرأ من أبيه وشكر عن حاطب ابن أبي بلتعة حيث كاتب الكفار فقال : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ (١) . وقال : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

فسمى من يتولى الله ورسوله « حزب الله » ، ثم قال : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣) .

الثانية : قال الواسطي : علامة المؤمن أربعة : لا يشكو من المصائب ، ولا يتخذ عمله رياء ، ويحتمل أذى خلقه ولا يكافئهم ، ويداري عباده على تفاوت أخلاقهم .

المقام العاشر : في الشهادة على التوحيد :

السؤال الأول : هو أن الله تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، ومن شهد لنفسه فإن تلك الشهادة لا تقبل في الفقه .

والجواب من وجوه :

الأول : إن هذا في الظاهر شهادة ، وفي المعنى اقرار ، واقرار

(٣) سورة يونس ، الآية : ٦٢ .

(١) سورة الممتحنة ، الآية : ١ .

(٢) سورة المجادلة ، الآية : ٢٢ .

المقر على نفسه مقبول . وإنما قلنا : إن هذا اقرار ، لأنه لما ادعى الوجدانية في الألوهية فقد أقر بأن الخلق كلهم عبيده ، ورزق العبيد على المولى لازم ، فكأنه تعالى أقر على نفسه للخلق كلهم بالرزق والحفظ والنصرة ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (١) .

الثاني : أن الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة ، ثم ذلك القول لا يراد لكونه قولاً ، بل لكونه دالاً على ذلك المطلوب . فلا جرم كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة . ثم أن القول الدال لو كانت دلالاته قطعية غير محتملة كان أولى بأن يكون شهادة . وإذا ثبت ذلك فجميع المخلوقات دالة على وحدانية الله وإلهيته دلالة قطعية عقلية ، فكلفت أولى بأن تكون شهادة ، فاذن شهادة الله على التوحيد لأجل أنه خلق الدلائل الدالة على الوجدانية قطعاً ، وأما شهادة الملائكة وأولي العلم فمعناها شهادة الاقرار والاعتراف ، فكانت شهادة الله على ذلك أقوى .

الثالث : وهو أن كل مسألة يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فإنه يمكن إثباتها بالدلائل السمعية ، ومسألة الوجدانية كذلك ، فلا جرم ذكر العلماء أنه يمكن إثبات أن الاله واحد بالدلائل السمعية . وإذا كان الأمر كذلك ، كان المقصود من هذه الشهادة أن يستدل بها على وحدانية الله تعالى .

السؤال الثاني : أنه تعالى نهى العباد أن يمدحوا أنفسهم ، فقال : ﴿ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) . ثم مدح نفسه ، وأثنى على نفسه ، فما السبب ؟

والجواب من وجوه :

الأول : وهو أنه إذا حصل للواحد منا نوع فضيلة فذلك فضل الله وكرمه ، والمستحق للثناء هو الله ، حيث أعطى تلك الفضيلة ، فلا جرم يقبح من الواحد منا أن يثني على نفسه . أما الحق سبحانه فإنه قد

(٢) سورة النجم ، الآية : ٣٢ .

(١) سورة هود ، الآية : ٦ .

حصلت له صفات الكمال ، ونعوت الجلال على وجه يمتنع زواله وتغيره
فظهر الفرق .

الثاني : من الفرق أن ما فينا من الخصال الممدوحة لا ينفك عن
أضدادها ، فإن علمنا مشوب بالجهل ، وقدرتنا مشوبة بالضعف ،
وملكنا لغرض الهلاك ^(١) ، وبقاءنا لغرض الفناء ، وحياتنا لغرض الموت ،
وأما صفات الله تعالى فإنها خالية عن أضدادها ، فإنه عالم بلا جهل ،
وقادر بلا عجز ، وملك بلا زوال ، وبقاء بلا فناء ، وحية بلا موت ،
وعزة بلا ذل ، فظهر الفرق ..

الثالث : إن الله تعالى إنما نهى عبده عن تركية نفسه لأن العبد
يقدم الدعوى على اظهار المعنى ، فأما سبحانه فإنه كان أظهر المعنى
قبل الدعوى ، لأنه خلقك ، وأعطاك الحياة والعقل ، وأنواع المنافع ،
فاظهار الدعوى بعد اقامة البرهان على المعنى يكون مستحسنًا ، بخلاف
حال العبد ، فإن أكثر أحواله يكون باظهار الدعوى مقدمة على اظهار
المعنى . والله أعلم .

الرابع : أن من أوله نقطة مذرة ، وآخره جيفة قدرة ، وفيما بينهما
حمل العذرة لا يليق به أن يمدح نفسه ، إنما يحق مدح النفس لمن هو
الأول والظاهر والباطن .

الخامس : إن حب الانسان لنفسه غالب ، فإذا شرع في مدح
النفس استولى ذلك عليه ، ثم إن ذلك يعميه ويصمه عن التنبيه لما فيه من
المعائب ، فيصير ذلك سبباً في بقاءه في ظلمات الجملات والجهالات ،
بخلاف الحق سبحانه وتعالى فإنه منزّه عن النقائص والآفات ، فلا يصير
مدحه لنفسه سبباً لشيء من المعائب والنقائص .

السؤال الثالث : لما شهد لنفسه بالوحدانية ، فأبي حاجة مع حصول
شهادته إلى شهادة الملائكة وأولي العلم ، وما الحكمة في أنه تعالى ذكر
بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة وأولي العلم ؟

(١) يعني : ما نملكه لا نملكه ليبقى ، بل ليستهلك في أغراض المعاش .

والجواب من وجهين :

الأول : روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يمشي خلف جنازة ، فقال واحد : هذا الميت كان رجلاً صالحاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : « واحد . وقال الثاني والثالث كذلك ، فقال : اثنان ، ثلاثة . فلما قال الرابع مثل ذلك قال : وجبت . فقيل : يا رسول الله ، وما التي وجبت ؟ فقال : وجبت مغفرته في كرم الله تعالى والجنة » ^(١) ، لأن المؤمنين شهود الله تعالى على وحدانيته ، فلو لم تقبل شهادتهم هنا لصارت شهادتهم بالوحدانية باطلة غير مقبولة ، وهو حكيم لا يفعل ذلك . وإذا عرفت هذا فنقول : الله تعالى لما جعل المؤمنين شهوداً لوحدانيته ، فلو أظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة كانت شهادتهم مردودة ، وذلك لا يليق بحكمة الحكيم . فلما جعلهم في هذه الآية شهوداً على وحدانيته دل ذلك على أنه تعالى لا يظهر قبح فعلهم يوم القيامة ، اللهم حقق رجاءنا بكرمك .

الثاني : أنه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا المطلوب على شهادتهم ، بل المقصود شهادة الله لهم بأنهم يوافقون الله في كل ما وصل إليهم من نهي وأمره وخبره ، والمقصود لإظهار شرفهم في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة ، لا توقيف المطلوب على شهادتهم .

السؤال الرابع : ما الحكمة في تكرير « لا إله إلا الله » في « شهد الله » الآية ؟ .

والجواب من وجوه :

الأول : أن المقصود من التكرار التنبيه على أن الإنسان يجب أن يكون مواظباً على ذكر هذه الكلمة في أكثر أوقات عمره .

الثاني : أنه لما حصلت هذه الكلمة أول الآية وآخرها صار ذلك تنبيهاً على أنه يجب على العاقل أن يجعل هذه الكلمة مذكورة في أول عمره وآخره ، حتى يكون في الدنيا سعيداً ، وفي الآخرة حميداً .

(١) هذا الحديث ، أخرجه أحمد في المستد ، عن عمر .

الثالث : إن احدى هاتين الشهادتين كانت قبل خلق الخلائق ،
والثانية بعد خلقهم .

الرابع : أنه ذكر احدى هاتين الشهادتين عن نفسه ، والأخرى عن
خلقه .

* * *

الفصل السابع

في

الأحكام الفقهية المنفردة على قولنا لا إله إلا الله

اعلم أن الإيمان لا بد له من أمرين : أحدهما هو : أن الأصل حصول المعرفة بالقلب ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ فاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(١) . وثانيهما : الإقرار باللسان وبالتوحيد ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ^(٢) . وذلك لأن قوله « قل » أمر للمكلف بأن يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ، ثم أكد هذه الدلالة بالسنة الغراء ، وهي قوله عليه الصلاة والسلام : « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » .

والسبب في أنه لا بد من هذا القول هو أن للإيمان أحكاماً بعضها يتعلق بالباطن ، وبعضها بالظاهر ، فما يتعلق بالباطن هو أحكام الآخرة ، وذلك متفرع عن العلم الذي هو باطن عن الخلق ، وما يتعلق بالظاهر هو أحكام الدنيا ، ولا يمكن إقامتها إلا بعد معرفتنا إنه مسلم ، ولا معرفة إلا بالقول باللسان ، فصارت المعرفة ركناً أصلياً في حق الله تعالى ، والقول ركناً شرعياً في حق الخلق ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْكَحُوا الْمُشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ ﴾ ^(٣) . وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ » . وقال تعالى : ﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ ^(٤) . جنة في الوقت وهي جنة المعرفة ، وجنة في العقبى وهي جنة الآخرة .

(١) سورة محمد ، الآية : ١٩ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٢١ .

(٣) سورة الرحمن ، الآية : ٤٦ .

(٤) سورة الاخلاص ، الآية : ١ .

واختلف المحققون ، فقال الأكثرون : الأولى أن يكون الذكر في
الابتداء قول : لا إله إلا الله . وفي الانتهاء الاختصار على ذكر كلمة :
الله ، ومنهم من واطب في الابتداء والانتهاء على ذكر لا إله إلا الله .
وحجة هؤلاء : أن عالم القلب مشحون بغير الله ، فلا بد من النفي لنفي
الأغيار ^(١) . فإذا صار خالياً فحينئذ يوضع منبر التوحيد ، ويجلس
على سلطان المعرفة .

وأما الذين اكتفوا في الانتهاء بكلمة (الله) فلهم في ذلك وجوه :
الحجة الأولى : أن نفي الغيب عدم .

الحجة الثانية : من قال : لا إله إلا الله ، فلعله حين ذكر كلمة
النفي لا يجد من المهلة ما يصل إلى الاثبات ، فحينئذ يبقى في النفي غير
منتقل إلى الاثبات ، وفي الجحود غير منتقل إلى الاقرار .

الحجة الثالثة : أن المواظبة على هذه الكلمة مشعرة بتعظيم الحق ،
بنفي الأغيار ، إلا أن نفي الأغيار من باب الاشتغال ، والاشتغال في
الأغيار يرجع في الحقيقة إلى شغل القلب بالأغيار ، وذلك يمنع من
الاستغراق في نور التوحيد ، فمن قال : « لا إله إلا الله » فهو مشغول
بغير الحق (وبالحق) . ومن قال : الله ، فهو مشغول بالحق (وحده) .
فأين أحد المقامين من الآخر ؟

الحجة الرابعة : أن نفي الشيء إنما يحتاج إليه عند خطوط ذلك
الشيء بالبال ، وخطور ذلك الشيء بالبال لا يكون إلا عند نقصان
الحال ، فأما الكاملون الذين لا يخطر ببالهم وجود الشريك فقد امتنع
أن يكلفوا بنفي الشريك ، بل لا يخطر ببالهم ولا يجري في خيالهم إلا
ذكر الله ، فلا جرم يكفيهم أن يقولوا : الله .

الحجة الخامسة : قال الله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي
خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ ^(٢) . فأمره بذكر الله ، ومنعه من الخوض معهم

(٢) سورة الأنعام ، الآية : ٩٢ .

(١) كل ما هو غير الله تعالى .

في أباطيلهم ولعبهم ، والقول بالشريك من الأباطيل واللعب ، ونفيه
خوض في ذلك الكلام ، فكان الأولى الاقتصار على قولنا (الله) .

فهذا ما في هذا المقام .

وههنا أنواع من التضرعات :

أحدها : أن نقول : إلهنا، إن موسى عليه السلام سأل أجمل الأشياء
فقال : ﴿ ربّ ارني أنظر اليك ﴾ ^(١) . وسأل أقل الأشياء فقال :
﴿ ربّ إنني لما أنزلت إليّ من خير فقير ﴾ ^(٢) . فنحن أيضاً نسألك
أجل الأشياء وهي خيرات الآخرة ، وأقلها وهو خيرات الدنيا . فنقول :
﴿ ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ ^(٣) .

وثانيها : يحكى أن رجلاً باع جارية ، ثم ندم ، واستحيا من
المشتري أن يظهر هذه الحالة ، فكتب في كفه حاجته ورفعها إلى السماء ،
فرأى المشتري في المنام : أن فلاناً من أحباء الله ، وقلبه معلق بهذه الجارية ،
فردّها عليه ، وأجرك على الله . فلما أصبح الرجل حمل الجارية إليه ،
وردها عليه . فأراد البائع أن يرد الذهب ، فقال المشتري : إن لهذا
التمن ضامناً ، وهو خير منك ... إلهنا ، إن كل ذلك البائع ندم على بيع
تلك الجارية ، فنحن ندمنا على بيع الآخرة بالدنيا ، وإذا كان ذلك
البائع قد استحي من العود ، فنحن من كثرة ذنوبنا نستحي منك ،
وإذا كان ذلك البائع قد كتب على كفه شيئاً من حاجته ورفعها إلى
السماء ، فجميع أعضائنا مكتوب عليها احتياجنا إلى رحمتك ، وذلنا
بين يديك .. إلهنا ، كما ضمنت دين الغرماء فاقبل ديننا ، وأسقط عنا
تبعات أعمالنا ، وافعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله ، يا من
لا يشغله شأن عن شأن .

ثالثها : يروى أن الصديق رضي الله عنه كان يخاف في صلاته
بالليل ، ولا يرفع صوته بالقراءة ، وكان عمر رضي الله عنه يجهر بها ،

(٣) سورة البقرة ، الآية : ٢٠١ .

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣ .

(٢) سورة القصص ، الآية : ٢٤ .

فسأل رسول الله ﷺ أبا بكر عن فعله فقال : من أناجيه يسمع كلامي .
وسأل عمر فقال : أوقف الوسنان ، وأطرد الشيطان ، وأرضي الرحمن ،
فأمر رسول الله ﷺ أبا بكر برفع صوته قليلاً ، وأمر عمر بخفضه
قليلاً ... إلخنا ، الايمان فينا كالرسول والقلب مثل أبي بكر ، واللسان
مثل عمر ، فالقلب يخافت بالذكر كأبي بكر ، واللسان يظهر الذكر
كعمر ، والايمان يأمر القلب بالزيادة في الذكر ، ويأمر اللسان باخفاء
الذكر ، فوفقنا لما تحب وترضى بفضلك يا أكرم الأكرمين .

* * *

فصل

روى الامام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نفس تموت فتشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، يرجع ذلك إلى قلب موقن ، إلا غفر الله له » (١) . قال الشيخ : فهذه شهادة شهد بها عند الموت ، وقد ماتت نفسه من الشهوات ، ولانت نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه ، وألقى نفسه بين يدي رب العزة ، وقدرة رب العالمين ، فاستوى منه الظاهر والباطن ، فلقى الله مخلصاً بتلك الشهادة ، فغفر الله له بتلك الشهادة التي وافق ظاهرها باطنها .

وأما الذي يقوله أيام الصحة فقوله مع التخليط ، لأنه يشهد بهذه الشهادة وقلبه مشحون بالشهوات ، ونفسه أشرة بطرة ، فلا يستحق بذلك القول المغفرة . فهذا هو التفاوت بين ذكر الشهادة في حالة الصحة ، وذكرها في آخر زمان الحياة .

وتمام القول فيه : أن الانسان الذي يكون قلبه مفتوناً بديناه ، ومأسوراً في الشهوات ، يكون سكران عن الآخرة ، حيران عن الله ، لم يحصل فيه اليقين البتة ، لأن قلبه مملوء بالميل إلى غير الله ، فلا يحصل فيه الميل إلى الله . أما إذا حصل في القلب اليقين بالله ، كان الأمر بخلاف ذلك ، وذلك لأن اليقين سمي يقيناً لاستقراره في القلب ، وهو النور . يقال : يقن الماء في الحفرة ، إذا استقر فيها . وإذا استقر النور دام ، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة ، فاطمأن القلب بجلال الله ، ثم انقطع عن

(١) نوادر الأصول للحكيم الترمذي . ص ٢١٣ .

غير الله ، فوقف هناك عاجزاً ، فاستغاث بالله صارخاً مضطراً ، فأجابه الحق ، فإنه يجب دعوة المضطرين ، فتفرق ذلك النور المتأليء في القلب ، فأنمحت به ظلمات الاشتغال بغير الله ، فيصير الملكوت مشاهداً له ، وهو قول حارثة لرسول الله ﷺ : « كأنني أنظر إلى عرش ربي بارزاً » . فقال له رسول الله ﷺ : « عبد نور الايمان قلبه » (١) .

ومما يحقق ما قلناه قوله عليه الصلاة والسلام : « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، مخلصاً بها روحه ، مصداقاً بها قلبه ولسانه ، فتقت له السموات فتقاً ، حتى ينظر الرب إلى قائلها من أهل الدنيا » .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل : يا رسول الله ، وما اخلاصها ؟ قال : « أن تحجزه عن المحارم » (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اخلص يكفك القليل » (٣) .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عهد إليّ ألاّ يأتيني أحد من أمّتي بلا إله إلا الله لا يخطئ بها شيئاً إلا وجبت له الجنة » . قالوا : يا رسول الله ، وما الذي يخطئ بها ؟ قال : « حرصاً على الدنيا ، وجمعاً لها ، ومنعاً لها ، يقول بقول الأنبياء ، ويعمل عمل الجبابرة » (٤) .

فالخلاص : أنه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة ، حتى تكون نافعة ، ولا يحصل اليقين إلا بموت الشهوات ، ولا يحصل موت الشهوات إلا بأحد طريقين : أحدهما : أن يروض نفسه حتى تموت شهواته حال حياته ، والثاني : إن ماتت شهواته عند وفاته ، وعظم رجاءه وخوفه من ربه ، وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطراباً ، فإذا تكلم ونطق بهذه الكلمة في تلك الحالة استوجب المغفرة .

(٣) أخرجه أحمد ، عن معاذ بن جبل .

(٤) أخرجه الطبراني عن زيد .

(١) أخرجه مسلم ، عن أنس .

(٢) أخرجه الطبراني عن زيد .

فلهذا السبب استحب السلف أن يلقنوا المحتضر هذه الكلمة . قال عليه الصلاة والسلام : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ » فإن الانسان عند القرب من الموت تموت شهواته ، ويحصل له نور اليقين ، فصارت هذه الكلمة مقبولة منه . وأما الأول وهو الذي يروض نفسه ، فقد فتح الله له روضة إلى الغيب ، فركبته أهوال سلطان الجلال ، فينطلق بها عن القلب الصافي ، فهو بالمغفرة أولى .

وعن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . قالوا : يا رسول الله ، فكيف هي للحي ؟ قال : « هي أجود وأجود » ^(١) . وكان أهل البيت يسمون هذه الكلمات : كلمات الفرج . فيتكلمون بها في النوائب والشدائد فيجيبهم الفرج . وفيه زيادة : « لا إله إلا الله العلي العظيم » .

وعن مكحول : أن كلمات الفرج : « لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : قال لي رسول الله ﷺ : « ألا أعلمك كلمات إذا قلتها غفرت لك ذنوبك ، وإن كانت مثل عدد الذر من الخطايا : لا إله إلا الله العلي العظيم ، سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين » .

* * *

(١) أخرجه الترمذي ، عن ابن عمر :

فصل

قال جعفر بن محمد الصادق : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف يغفل عن أربع : عجبت لمن أعجب بأمر كيف لا يقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » . وإنه تعالى يقول : ﴿ وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ^(١) . وعجبت لمن خاف قوماً كيف لا يقول : حسبي الله ونعم الوكيل ، والله تعالى يقول : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ^(٢) . وعجبت لمن مكر به كيف لا يقول : وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، والله تعالى يقول : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ، وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ ^(٣) . وعجبت لمن أصابه هم أو كرب لا يقول : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(٤) ، فيقول الله : ﴿ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ^(٥) .

وقال سفيان بن عيينة : إن الله لما قال : (وكذلك ننجي المؤمنين) فقد وعد كل مؤمن يقول : (لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) . أن ينجيه من الغم . ومعلوم بالضرورة أن الله لا يخلف الميعاد .

* * *

(١) سورة الكهف ، الآية : ٣٩ . (٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٧ .

(٢) سورة آل عمران ، الآيتين : ١٧٣ ، ١٧٤ . (٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٨ .

(٣) سورة غافر ، الآية : ٤٥ .

فصل

في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى

لما كان كل ما تتصور النفس فالله بخلافه ، فلم يتمكن العقل والنفس من الإشارة إلى حقيقة معلومة بأن حقيقة الاله هي هذه الحقيقة .

ويروى عن سهل بن عبد الله أنه سئل عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالمعلم ، غير مدركة بالاحاطة ، وقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، والقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر اليه المؤمنون بالابصار من غير احاطة ، ولا إدراك نهاية .

وروي عنه أيضاً أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والحيرة .

وقال الشبلي : من أشار إليه فهو ثنوى ، ومن كيفه فهو وثني ، ومن نطق فيه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد ، وكل ما يميزتموه بأفهامكم ، وأدركتموه بعقولكم فهو مصروف مردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم .

واعلم أن من الناس من احتج في هذه المسألة بآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ^(١) . قال أهل التفسير : وما عرفوه حق معرفته . من قدر الثوب إذا حزره وأراد معرفة مقداره . واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، لأن هذه الآية وردت في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع :

أولها : في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ ﴾ ^(١) . فهؤلاء الذين قالوا : ﴿ مَا أَنزَلَ

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٩١ . وسورة الحج ، الآية : ٧٤ . والزمر ، الآية : ٦٧ .

الله على بشر من شيء ﴿١﴾ . كانوا منكروين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافراً ، فقلوه : (وما قدروا الله حق قدره) عائد إلى هؤلاء .

وثانيها : قال الله تعالى في سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس ضُربْ مَثَلٌ فاستمعوا له ، إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ (١) . فلما كان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام عائداً إليهم .

ثالثها : قال الله تعالى في سورة الزمر : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) . ثم قال بعد هذا : (وما قدروا الله حق قدره) . فيكون هذا الكلام عائداً إلى الذين أشار إليهم قبل هذه الكلمة بقوله : (أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) .

وإذا ثبت هذا فقلوه : (وما قدروا الله حق قدره) عائد في الأولى إلى منكري النبوات ، وفي الثانية والثالثة إلى عبدة الأوثان . فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف كون المؤمنين كذلك موصوفين به .

ومما اشتهر التمسك به في هذه المسألة قوله تعالى في سورة طه : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ (٣) . وأجيب عنه بأن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أنه تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون علماً بما بين أيديهم وما خلفهم . فالضمير في قوله تعالى « به » لا يكون عائداً إلى الله ، بل عائداً إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ، لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين أولى .

(١) سورة الحج ، الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .

(٢) سورة الزمر ، الآيات ٦٤ - ٦٦ .

(٣) سورة طه ، الآية : ١١٠ .

واعلم أن العمدة في هذه المسألة أن الله سبحانه غير متناه في الذات والصفات ، والعقل متناه في الذات والصفات ، والمتناهي لا سبيل له إلى ادراك غير المتناهي ، وهذه هي النكتة المستحسنة ، ونحن نشرحها لنظهر قوتها إن شاء الله فنقول :

الحجة الأولى :

العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديماً أزلياً ، وذلك لأن كل ما يستحضره العقل استحضاراً على سبيل التفصيل من مقادير الأزمنة فذلك متناه ، مثلاً نفرض قبل هذا الوقت ألف ألف سنة ، ونفرض بحسب كل لحظة من هذه المدة ألف ألف سنة ، وهكذا إلى أقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره .

ثم إذا تأمل العقل عرف أن كل ذلك متناه ، والحق سبحانه إنما كان قديماً أزلياً لأنه كان موجوداً قبل هذه المدة التي أحاط العقل والخيال بها ، فثبت أن كل مقدار يصل العقل والخيال إليه فالحق سبحانه ليس قديماً باعتبار أنه كان موجوداً في ذلك الوقت ، بل باعتبار أنه كان موجوداً فيما وراء ذلك ، فإذاً لا سبيل للعقل البتة إلى معرفة القدم والأزل . وإذا عرفت هذا في كونه أزلياً قديماً فاعرف مثله في كونه دائماً أبدياً .

فإذاً العقل لا سبيل له البتة إلى معرفة كونه دائماً أبدياً على سبيل التفصيل ، فإن كل ما يشير العقل إليه فأزليته وأبديته خارجتان عن ذلك المقصود .

وأيضاً إذا قلنا : أنه موجود ليس بجوهر ولا عرض ، ولا حال ولا محل ، فهذا ليس يقتضي معرفة ذات الحق سبحانه وتعالى ، لأننا أردنا بقولنا : موجود ، ما يناقض العدم ، فهذا المفهوم .

* * *

طلب الآخرة وتترك التزید من الدنيا

وتعاهد يا أخى قلبك بأسباب الآخرة ، وعرضه لذلك ، وصنه من أسباب الدنيا ، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة . ولا تأذن لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه ، وينطفئ نور القلب من أجله ، وكن في تأليف ما بينه وبين محمود العواقب حريصاً ، وخوف نفسك عقوبة ما في يديك من الدنيا ، وقلة أدائك لما يجب عليك فيه من الشكر ، واستكثر ما في يديك ، لما تعلم من ضعف شكوك ، فتشتغل النفس بما في يديها عن الفكر في أمر الدنيا ، والمحبة للزيادة منها .

فإذا أجمعتها ^(١) من ذكر الزيادة من الدنيا ، وحملتها على درجة الخوف مما في يديها ، قنعت ورضيت ، وعفت عن طلب الدنيا بالحرص والرغبة ^(٢) ، ورجعت إلى الآخرة بالحرص عليها ، والرغبة فيها ، فإن النفس مبنية على أساس الطمع .

ونخرج الحرص والرغبة من الطمع ، وبناء الأنفس على قواعد الطمع . أما الطمع في الدنيا فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من الدنيا . وأما الطمع في الآخرة فيستعمل أداة الطمع في طلب الزيادة من أعمال الآخرة ، بالحرص عليها ، والرغبة فيها .

(١) أجمعتها : أرحتها .

(٢) ليس طلب الدنيا في حد ذاته محظوراً ، وإنما المحظور الحرص عليها ، وعقد القلب على حياها ، أما عمران الحياة ، وتنمية الأموال فمن مقاصد الإسلام ، لإعداد القوة ، وعون الضعفاء من المؤمنين وغير المؤمنين .

انظر : (أعمال القلوب والجوارح . ص ٩٠) .

قيل لحكيم : فما آلة الطمع ، وجماع آفاته ؟

قال : الشره والحرص ، وهيجان الرغبة . فعلى أيها أوقعت طمعها
أحضرت أداتها ، وجمعت آلتها ، وجدت في طلبها .

فإذا قهرت صاحبها ^(١) على موافقة هواها استعبده ، فأذهلته
وأذلته وأدهشته وأتعبته ، وطيشت عقله ، ودنست عرضه ، وأخلقت ^(٢)
مروءته ، وفتنته عن دينه ، وإن كان عالماً لبيباً عاقلاً كيساً فطناً فصيحاً
حكيماً فقيهاً لوثنه وأسقطته ، وفضحته ، فاحتمل لها ذلك كله وهو
الأريب العالم الأديب ، فصيرته بعد العلم جاهلاً سفيهاً ، أحمق خفيفاً .

وذلك أنها سقته من موافقة هواها كأساً سماً صرفاً ، فاستمالته ،
فمال بعلمه وعقله وفهمه ، ونفاذ حكمته وبصره ، فأجراه مجرى
هوى نفسه ، فجعلت له الفضيحة في عاجل الدنيا عند حكمائها وعقلائها ،
وأسقطته من عين الله ، وأعين عباده من أهل البصائر ، وأخرت له
أجل الندامة الطويلة عند مفارقة الدنيا ، وفي عرصات القيامة .

فإذا قطع عليها العبد الطمع من أسباب الدنيا ، وغلب بعقله هواها ،
رجعت بطمعها إلى منازل الآخرة ، وأحضرت أداتها ، واستعملت
آلتها ، فاشتغلت بطلب أسباب الآخرة لا محالة ، لأنها بنيت على الطمع ^(٣) .

فإذا تجردت من طلب أسباب الدنيا ، وأقبلت على نفسها بالابتناس

(١) في الأصول (قهرت صاحبها العبد) . وقد حذفنا كلمة (العبد) لعدم الحاجة إليها .

(٢) أخلقت مروءته : أبلتها وضيعتها .

(٣) ليس المراد بكلمة الطمع القضاء على الطوائف الجلية في الانسان ، لأنه مستحيل ،
ولكن المراد تعديل سلوك الانسان فيها ، وتحويلها من طريق الخطأ إلى طريق الصواب .
ومن هنا تعقب أبو المواهب الشعراني أبا حامد الغزالي وخطأه في القول بجواز القضاء
على الأخلاق الرديئة الجلية في الانسان ، وقال : إنها لا تزول ، ولكنها تتخذ وتضعف
بجلول أعدائها مكانها ، فإذا ضعفت رقابة الانسان على نفسه عادت أخلاقه السيئة مرة
أخرى . انظر : (أسرار أركان الإسلام ص ٧٥ ، وكذلك انظر : العرائس القدسية
ورقة ٤٧ أ) .

من المخلوقين ^(١) ، رجعت برغبتها وطعمها إلى أسباب الآخرة ، فجدت في طلبها واجتهدت ، وعزفت عن الدنيا ^(٢) ، وباينت الهوى ، وخالفت العدو ، وتبع العلم ، وكانت مطية للعقل ، صابرة على مرٍّ ما يدل عليه الحق ^(٣) . فنجت وأنجت ^(٤) .

Number of hauls	<i>P. setiferus</i> (%)	<i>P. setiferus</i> + <i>P. setiferus</i> + <i>P. setiferus</i> (%)
1	~10	~5
2	~30	~10
3	~50	~15
4	~70	~18
5	~85	~20
6	~90	~20
7	~95	~20
8	~98	~20
9	~100	~20
10	~100	~20

✱ ✱ ✱

(١) الإيثار من المخلوقين : يعني عدم الركون إليهم ، وعدم تعليق الهمة بهم .
 (٢) عزفت عن الدنيا : زهدت فيها مع وجودها ومع دوام العمل فيها .
 (٣) مر ما يدل عليه الحق : يعني : شدة العمل الذي أرشد إليه الله تبارك وتعالى .
 (٤) نجت وأنجت : يعني : نجت النفس بهذا إلى الحق ، وأنجت غيرها بالقنوة والبيان الموافق للحق .

الخوف والحزن

وتعاهد يا أخي قلبك عند همهمة ، والزمة الفكرة في أمر المعاد
فلا تفارق قلبك ، وتوهم بقلبك هول المطلاع عند مفارقة الدنيا ، وترك
ما قد بذل أهلها فيه مهج نفوسهم ، وتدنيس أعراضهم ، وأخلاق
مروءاتهم ، وانتقاص أديانهم ، ثم تركوا ذلك كله ، وقدموا على الله
فرادى آحاد ، مع ما قد وردوا عليه من وحشة القبر ، وسؤال منكر
ونكير ، وأهوال القيامة ، والوقوف بين يدي الله ، والمساءلة عن جميع
ما كان منهم من قول أو فعل ، من مثل مثاقيل الدر ، وموازن الخردل .

وسأله عن الشباب فيم أبلى شبابه ، وعن العمر فيم أفنى عمره ،
وعن المال من أين اكتسب ، وعن منع ، وفيم أنفق ، وعن العلم
ماذا عمل فيه ، وعن جميع الأعمال التي صدقوا فيها ، والتي كذبوا
فيها .

فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك ، وأسكنته إياه ، وكان فيك
شيء من صحة تركيب العقل ، فإنه سيكل منك لسانك ، ولا يعدمك
الخوف اللازم ، مع الحزن الدائم ، والشغل المحيط بقلبك ، فإن إبليس
إنما يتصور عليك في الآثام من وسوسة نفسك ، وخراب قلبك .

وخرابه إنما يكون فارغاً من الخوف اللازم ، والحزن الدائم ،
فحينئذ ينفت فيه بالوسوسة لآمال الدنيا ، والجمع لها ، ومخافة فقرها ،
مع لزوم طول الأمل لقلبك ، وأعراضه عن الله تعالى ، وانقطاع مواد
عظمة الله منه ، وفراغه من الهيبة والحياء منه . فإذا وجد القلب عامراً

خنس ، ونفر منه ، ولم يجد فيه مساعاً ، ولا من جوانبه مدخلا ، لأن القلب عامر بالخوف والأحزان والفكر ، فهو منير مضيء .

يرى العبد بنور قلبه مداخل إبليس ، فيرميه بالإنكار لما يدعو إليه ، ويعتصم بما أيدته الله به من نور قلبه ، فيدحره ^(١) عنه ، فولى الخبيث إلى قلب قد فقد الخوف ، فخرّب وأظلم ، فلا نور فيه .

فلا شيء أثقل على الخبيث من النور ، فإذا وجده خنس ، ونفر منه ، فلا يقدر عليه إلا من قبل الغفلة من العبد .

ونور القلب إنما هو من تيقظه وحياته ، فإذا غفل مات وأظلم ، وطفئ نوره فيلبس على العبد ما يدخل عليه العدو ، أو يكدر عليه . فاختلس إبليس من العبد ، واستدام القلب بالغفلة ، فتسور عليه بالآثام ، فإذا أصرّ على الإقامة عليها ، ورضي بها ، علاه الرين ^(٢) ، فأظلمه ، واستقر إبليس فيه ، ثم سلك به سبيل الآثام ، إلى أن يوصله ويوقعه في الكبائر .

ولا شيء أعجب إلى إبليس من ظلمه القلب وسواده ، وانطفاء نوره ، وتراكم الرين عليه ، ولا شيء أثقل على الخبيث من النور والبياض والنقاء والصفاء ، وإنما مأواه الظلمة ، وإلا فلا مأوى له ولا قرار في النور والبياض .

ولقد بلغني أن النبي ﷺ كان يكره أن يدخل البيت المظلم ، حتى يضاء له فيه بمصباح ^(٣) .

* * *

(١) يدحره : يهزمه ، ويذله .

(٢) الرين : الظلمة المتراكمة على القلب من أثر المعصية .

(٣) لم نعر على هذا الخبر فيما بين أيدينا من مصادر .

مراقبة القلب

يروى عن بعض الحكماء أنه قال : أن من أشرف المقامات وأفضلها :
المراقبة لله ، ومن أحسن المراقبة : أن يكون العبد مراقباً بالشكر للنعيم :
والاعتراف بالاساءة ، والتعرض للعفو عن إساءته ، فيكون قلبه لازماً
لهذا المقام في كل أعماله ، فمتى ما غفل رده إلى هذا بإذن الله .

ومما يعين على هذا ترك الذنوب ، والتفرغ من الأشغال ، والعناية
بالمراجعة .

ومن أعمال القلب التي يزكو بها ، ولا يستغنى عنها : الاخلاص ،
والثقة ، والشكر ، والتواضع ، والاستسلام ، والنصيحة ، والحب في
الله تعالى ، والبغض فيه ^(١) .

وقال : أقل التصح الذي يخرجك تركه ، ولا يسعك إلا العمل به ،
فمتى قصرت عنه كنت مصراً على معصية الله تعالى في ترك النصيحة
لعباده ، فأقل ذلك : ألا تحب لأحد من الناس شيئاً مما يكره الله عز
وجل ، ولا تكره لهم ما أحب الله عز وجل .

فهذه الحال التي وصفنا واجبة على الخلق ، لا يتسع تركها طرفة عين
بضمير ، ولا بفعل جوارح .

وحال أخرى فوق هذه ، وهي فضيلة للعبد : أن يكره لهم ما كره
الله ، وأن يحب لهم ما أحب الله تعالى .

(١) معنى الحب في الله والبغض فيه : أن يكون سبب الحب والبغض هو الله ، فتحب أحبائه
الله ، وتبغض أعداءه .

وقد أخرج الإمام أحمد أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم : أي الأعمال أفضل ؟
فقال : « الحب في الله ، والبغض في الله » .

قال : وجاء رجل لابن المبارك فقال : أوصني . فقال : « راقب الله » . فقال المزجل : وما مراقبة الله ؟ فقال : « أن تستحي من الله » . قال : فللمناجاة والمراقبة من حيث تضع قلبك ، وهو : أن تضعه دون العرش ، فتناجي من هناك .

وفي رد القلب إلى المراقبة مراجعتان : أولاهما : مراقبة النظر مع تذكر العلم . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ^(١) . وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ﴾ ^(٢) .. ثم تذكر العظمة لوجود الخلاوة .

ومقام آخر ، يروي أن الله سبحانه أوحى إبراهيم عليه السلام : « يا إبراهيم ، تدري لِمَ اتخذتك خليلاً ؟ قال : لا يارب . قال : لطول قيامك بين يدي » ^(٣) . قال : فقيل : إنما كان قيامه بالقلب ، وليس بالصلاة . وهذا يوافق القرآن ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ ^(٤) . وقول حارثة : « كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً » ^(٥) .

وقال : أعلى الأعمال في الدرجات أن تعبد الله على السرور بمولاك ، ثم على التعظيم له ، ثم على الشكر ، ثم على الخوف . وآخر الأعمال التي تكون بالصبر .

والصبر على وجوه : صبر ، وصبر جميل ^(٦) . ثم تخرج إلى الخوف ، والشكر ، ثم إلى التعظيم ، ثم السرور .

(١) سورة هود ، الآية : ٥ .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٥ .

(٣) انظر تفسير الطبري ، ١٣٥/٤ .

(٤) سورة ص ، الآية : ٤٦ .

(٥) من حديث ذكره في مجمع الزوائد ٥٧/١ ، وعزاه الهيثمي للطبراني والبخاري . ورواية الطبراني فيها ابن لهيعة . ورواية البخاري فيها يونس بن عتبة لا يحتاج به .

(٦) التصبر : محاولة الصبر مع جزع النفس وقلقها . والصبر الجميل : هو السكوت تحت مجاري القدر دون حرج في الصدر ولا جزع من النفس .

انظر : (أعمال القلوب والجوارح ص ٢٣٠) .

ومن أراد الزهد فليكن الكثير مما في أيدي الناس عنده قليلاً ،
وليكن القليل عنده من دنياه كثيراً ، وليكن العظيم منهم إليه من الأذى
صغيراً ، وليكن الصغير منه إليهم عنده عظيماً .

وقال : إذا دعيتك نفسك إلى ما تنقطع به عن حفظك ، فاجعل
بينك وبينها حكماً من الحياء من الله تعالى .

وقال : إن الأكياس إذا دعتهم النفوس إلى تقطعهم بخدائهم عن
سبيل نجاتهم ، حاكموها إلى الحياء من الله تعالى ، فأذلها حكم الحياء .

وقال : مخرج الاعتزاز من حسن ظن القلب ، ومخرج حسن ظن
القلب مع القيام لله على ما يكره ، ثم من كذب النفس .

وقال : من النصيح أن يحب أن يكون الناس كلهم خيراً منك .

وقال : ذكر عند ابن المبارك عابد تعبد بلا فقه ، فقال : « ليت
بيني وبينه بحر » (١) .

وقال : من انقطع إلى الله يصبر على الناس ، ومن انقطع إلى غير
الله لم يصبر عن الناس .

وقال كرز (٢) : « من قرأ القرآن ما له ولكلام الناس » .

وقال : إنما هي أيام قلائل ، فما على الإنسان لو وهب نفسه لله .

وقال : التواضع لله : ذل القلب .

(١) ابن المبارك : هو إمام غراسان غير منازع ، وله قدم راسخ في العلم والورع ، روى
عن حميد الطويل ، وإبراهيم التيمي ، وشعبة ، ومالك ، والثوري ، وابن عينة ،
وغيرهم . وروى عنه معمر ، وابن مهدي ، وابن معين . وغيرهم .

قال ابن معين : ثقة مستثبت صحيح الحديث . مات عام ١٨١ هـ . وإنما تبرا من العابد
بلا فقه ، لأن عمله غير قائم ، والبدعة إليه سريعة .

(٢) عالم ، فقيه ، مجاب الدعوة . توفي سنة ٢٠٣ هـ . انظر : (طبقات الأولياء لابن الملقن
ص ٩٨) .

وقال : أول النعم معرفة العلم الذي به تؤدي فرائض الله ، ثم
الصحة والغنى ، ثم العقل .

وقال : ليس للعبد أن يرد على مولاه شيئاً من أحكامه ، وعليه
أن يرضى بما ورد عليه من حكم مولاه ، فإن لم يرض صبر . فللعبه
حالات : حال يوافق منه رضى على ما يحب ، وحال يوافق منه صبراً
على ما يكره .

• • •

العدل والفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

يروى عن بعض الحكماء أنه قال : طريق الآخرة واحد ، والناس فيه صنفان : فصنف أهل العدل ، وصنف أهل الفضل .

والعدل عدلان : عدل ظاهر فيما بينك وبين الناس ، وعدل باطن فيما بينك وبين الله .

وطريق العدل طريق الاستقامة ، طريق الفضل طريق طلب الزيادة .
الذي على الناس لزوم العمل به طريق الاستقامة ، وليس عليهم لزوم طريق الفضل .

والصبر والورع مع العدل ، وهما واجبان ، والزهد والرضا مع الفضل ، وليسا بواجبين . والانصاف مع العدل ، والاحسان مع الفضل .
ومن شغله العدل عن الفضل فمعذور ، ومن شغله الفضل عن العدل فهو مخدوع متبع لهوى نفسه . وعلى الانسان معرفة العدل ، وليس عليه معرفة الفضل إلا تبرعاً ، وهكذا كل عمل لا يجب على العبد فعله ، لا يجب عليه علمه .

ولا يكون العبد من أهل العدل إلا بثلاث خصال . بالعلم حتى يعلم ما له مما عليه ، وبالفعل ، وبالصبر .

فمفتاح العدل ، وأولاه بالعبد ، وأوجبه عليه : أن يعرف قدر نفسه ، فلا يكون لها عنده قدر فوق منزلتها ، وأن تشبه سريره علانيته ،

فأحرم الناس فيه ، وأقربهم منه مأخذاً : المراجع نفسه في كل خطرة
تهواها نفسه أو تكرهها ، فينظر في ذلك : أن لو أطلع الناس على حاله
هذه فاستحيا أو كرهها تحول من تلك الحالة إلى حالة لا يستحيا منها .
فإن الذي لا يستحيا منه ضد الذي يستحيا منه ، فإذا تحول واستمر
فليُنظر ، فإن اشتهت نفسه أن يطلع الناس عليه ، تحول منه إلى ما لا تشتهي
نفسه ، فإن الذي تشتهيه ضده ، فيكون أبداً في ضد ما تشتهيه نفسه .
وأبعد الناس من العدل : أشدهم غفلة عن هذا ، وأقلهم محاسبة
لنفسه . وأبعد الناس من العدل ، وأطولهم غفلة عن هذا : أشدهم
تهاوناً به .

ولو عقلت من الذي تراقب ، ثم تقطعت أعضاؤك قطعاً ، وانشق
قلبك ، أو سحت في الأرض ، لكنت بذلك محقوقاً ، فلما لم تعقل
لم تجد مس الحياء والخوف في مراقبة الله تعالى ، ومطالعته على ضميرك ،
وعلمه بما تجتلبه حواسك على قلبك ، وقدرته المحيطة بك ، ثم أعرضت
بعد ذلك كالتهاون به إلى مراقبة من لا يطلع على سرّك ، ولا علم له
بما في ضميرك ، فقلت : لو أطلع الناس على ما في قلبي لقلوني ومقتوني ،
فمسك الحياء والخوف منهم حذراً من نقصان جاهك ، وسقوط منزلتك
عندهم ، فكنت مراقباً ، ومنهم خائفاً ، ومن مقتهم مشفقاً ، إذ لم
تخف مقت الله لك ، وسقوط منزلتك وجاهك عنده ، ومقت الله أكبر .

ثم إذا عملت شيئاً من الطاعات التي تقرب إلى الله زلفى ، فإن
هم اطلعوا عليها عقدت بقلبك حب حمدهم على ذلك ، وأحببت
اتخاذ المنزلة عندهم بذلك . وإن كان شيئاً يتقرب به إلى الله من طاعته
بعقد ضمير ، أو اكتساب جوارح ، فكان ذلك سرّاً ، أحببت أن
يطلعوا عليه ليحمدوك ، ويقوم به جاهك ، فلم تقنع باطلاع الله عز
وجل ، ولا بثوابه في عمل السر ولا عمل العلانية ، واستوجب من
الله المقت على ذلك ، وسقوط الجاه عنده ، ثم مضت أيامك على هذا ،
وأنت قانع بذلك ، راض به ، غافل متماد مقتر مخدوع ، وكانت هذه
الحالة عندك أحسن أحوالك ، وأحزم أمورك .

ولو استغنيت بالله وحده ، وباطلاعه عليك ، وبجزيل ثوابه لأهل طاعته ، ومحبتة لهم ، وتوفيقه لهم ، وتسديده إياهم ، وراقبته ، لأغناك ذلك عمن لا يملك لك ولا لنفسه ضرراً ولا نفعاً . وقد رضي منك بذلك ، وليتك تضبطه .

فأولى الفضائل بك ، وأنفعها لك : أن تكون نفسك عندك دون قدرها ، وأن تكون سريرتك أفضل من علانيتك ، وأن تبدل للناس حقوقهم ، ولا تأخذ منهم حقلك ، وتتجاوز عما يكون منهم ، وتنصفهم من نفسك ، ولا تطلب الانصاف منهم ، وإنما هو التطهير ثم العمل ، والتطهير أولى بنا من العمل .

التطهير والعمل

والتطهير هو : الانتقال عن الشر إلى الأساس الذي يبني عليه الخير .
وقد يمكن أن يسقط البناء ويبقى الأساس ، ولا يمكن أن يسقط الأساس ويبقى البناء .

ومن لم يتطهر قبل العمل فإن الشر يمنع العبد من منفعة الخير ،
فترك الشر أولى بالعبد ، ثم يطلب الخير بعد . والنفس تجزع من التطهير ،
وتفر إلى أعمال الطاعات ، لتثقل التطهير عليها ، وخفة العمل بالطاعات
بلا طهارة .

فإذا كانت الطهارات متقدمة أمام العمل بالطاعات بعد خفته عليها
لمكان الطهارة ، فالحاجة إلى معرفة الأسباب التي يطلب منها الخير
وتوصل إلى الله شديدة . فمن كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها
التلف ، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم ، حتى
يصل إليها .

فإذا وصل إليها تمسك بها ، وعمل عليها ، لأن المعرفة لآفات العمل
تكون قبل العمل ، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، وحاجة العبد إلى معرفة
نفسه وهواها ، وعدوه ، ومعرفة ترك الشر أشد إن كان كيساً ، وهو
إلى ذلك أفقر إن كان فطناً معنياً بنفسه .

لأنه ليس العمل بكل الخير يلزم العبد ، والشر كله لازم للعبد
تركه ، ومن ترك الشر وقع في الخير ، وليس كل من عمل بالخير كان
من أهله .

ومعرفة العبد للشر فيها علم الخير والشر ، وليس في معرفة الخير العلمان جميعاً ، لأن كل من ميز الخير من الشر فعزله ، واعتزله ، فكل ما بقي بعد ذلك فهو خير كله . وقد يمكن أن يعلم الخير ولا يحسن أن يميز ما فيه من الشر من الآفات التي تفسده وتبطله ، لأن الخير مشوب بمزاج بالشر ، والشر شر كله .

وقد أضل العدو الخبيث عن الله كثيراً من الناس بالخير ، وأضل كثيراً منهم بالشر ، وإنما أضل من أضل بالخير لقلة معرفتهم بما يمازج الخير من الشر ، فجهلوا معرفة ذلك وأوهمتهم أنفسهم أنهم على خير وهدى ، وطريق محبة ، وسبيل واستقامة ، وهم ضالون عن الله ، عادلون عن طريق محبته ، وسبيل الاستقامة إليه .

وإنما ذلك من كثرة الآفات التي تخلق الأعمال ، وقلة علم العمال بها ، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

ما أغفل الناس عن أنفسهم ، وعن أهوائهم ، وعن عدوهم ، فنعود بالله من الغفلة والسهو والنسيان الذي يردى ، ويفسد الأعمال .

والحري أن تارك الشر يكون تركه له على قدر ما يعرف ويخاف من ضرره ، وهو قائم بفرض تقرب اقامته من الله زلفى . وطالب الخير يكون طلبه له على قدر ما يرجو ويعرف من منفعته ويعرف ، أن العلم شيء ، والعمل شيء ، والمنفعة شيء ، وربما كان علم ولم يكن به صاحبه عاملاً ، وربما كان علم وعمل ولم تكن منفعة ، وربما كان علم وعمل ومنفعة ، ثم يكون بعد ذلك إبطال واحباط . وربما علم العبد وعمل وانضع وسلم وتم .

الخصال التي يطلب منها الخير :

فطالب الخير لا يستغني عن خمس خصال سوى ما يحتاج فيه إلى علم حدود الأعمال وأحكامها ، وأدائها إلى الله خالصة مخلصه ، مشوبة بالصدق كما أمر وفرض وسن ، في الأوقات التي أمر وفرض .

فصاحب الخير العامل به لا يستغني عن : الصدق ، والصواب ،
والشكر ، والرجاء ، والخوف .

أما الصواب :

فالسنة . والسنة ليس بكثرة الصلاة تدرك ، ولا بكثرة الصيام
والصدقة ، ولا بالغفل والفهم ، ولا بغرائب الحكمة ، ولا بالبلاغ
والموعظة ، ولكن بالاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ،
والأئمة الراشدين من بعده .

وليس شيء أشد تهمة ، ولا أكثر ضرراً على السنة من العقل .
فمن أراد العبد أن يسلك سبيل السنة بالعقل والفهم خالفها ، وأخذ
في غير طريقها ؟ .

وأما الصدق :

ففي أربعة أشياء : تعمل العمل ، ثم لا تريد على ذلك جزاء ولا
شكوراً إلا من الله تعالى ، ولا تبطله بالمن والأذى . ومنه صدق اللسان
في الحديث ، وقد يصدق في حالة بلسانه وهو عاص لله تعالى في صدقه ،
وهو : المغتاب والتمام .

وأما الشكر :

فمعرفة البلوى . فإذا عرف أن كل نعمة فهي من الله لا من غيره ،
وإنما هي بلوى يختبر بها عبده ، شكر أو كفر ، وكل سوء صرف عن
العبد فالله تعالى صرفه ، ليشكره عبده أو يكفره ، فهذا من الشكر .

فإذا عرف العبد هذا ، أنه من الله ، وعده من نعمه عليه ، ولم
يدخل فيه أحداً : نفسه ولا غيرها ، فقد شكره . فالشكر متفاوت ،
والناس فيه متباينون متصاعدون ، وهذا أدناه ، وأما أعلاه فلا يبلغه
أحد ، وليس له حد .

ومنه أيضاً ، وهو يشبه ما وصفناه ، إلا أنه أصل الشكر : أن يعرف

العبد : أن ما به من نعمة فمن الله ، بقلبه ، علم يقين ، لا تخالطه الشكوك .
فإذا عرف بقلبه ذلك ، ذكره بلسانه ، فحمده عليه ، ثم لم يستعن بشيء
من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم .

وأعلا من ذلك من الشكر : أن تعد كل بلاء نزل بك نعمة ، لأن
الله من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزله بك . والناس
يحتاجون عند ذلك إلى الصبر ، وهو قائم بالشكر .

وأما الرجاء فهو :

أن ترجو قبول الأعمال ، وجزيل الثواب عليها ، وتخاف مع
ذلك أن يرد عليك عملك ، أو يكون قد دخلته آفة أفسدته عليك .

والراجون ثلاثة :

رجل عمل حسنة ، وهو صادق في عملها ، مخلص فيها ، يريد
الله بها ، ويطلب ثوابه ، فهو يرجو قبولها وثوابها ، ومعه الاشفاق فيها .

ورجل عمل سيئة ثم تاب إلى الله منها ، فهو يرجو قبول توبته
وثوابها ، ويرجو العفو عنها ، والمغفرة لها ، ومعه الاشفاق ألا يعاقبه
الله عليها .

فهذان رجاؤهما رجاء صادق .

وأما الثالث فهو : الرجل يتمادى في الذنوب ، وفيما لا يحبه لنفسه ،
ولا يحب أن يلقي الله به ، ويرجو المغفرة من غير توبة ، وهو مع ذلك
غير تائب منها ، ولا يقلع عنها ، وهو مع ذلك يرجو .

فهذا يقال له : مغتر ، متعلق بالرجاء الكاذب ، والأمانى الكاذبة ،
والطمع الكاذب . والقيام على هذا يقطع مواد عظمه الله من قلب العبد ،
فيدوم اعراضه عنه ، ويأنس بجانب مكر الله ، ويأمن تعجيل العقوبة .
وهذا هو : المغتر المخدوع المستدرج .

وأما أمثالنا من الناس فينبغي أن يكون الخوف عندهم أكثر من الرجاء ، لأن الرجاء الصادق إنما يكون على قدر العمل بالطاعات .

والخوف :

على قدر الذنوب ، فلو كان الرجاء يستقيم بلا عمل لكان المحسن والمسيء في الرجاء سواء ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ﴾ (١) . وقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

ومعنى الحديث الذي جاء «لو وزن رجاء المؤمن وخوفه لاعتدلا» (٣) لا ينبغي أن يكون نخاصاً بين أهله . وهو مثل الحديث الآخر : « المؤمن ككذي قلبين : قلب يرجو به ، وقلب يخاف به » (٤) . فلئما هو إذا أحسن رجاء ، وإذا أساء خاف مع التوبة والندم والاقلاع .

فأما من عرف نفسه بكثرة الاساءة فينبغي له أن يكون خوفه على قدر ذلك ، ورجاؤه على قدر ما يعرف من نفسه من الاحسان ، لأنه الرجاء على قدر الطلب ، والخوف على قدر الهرب .

* * *

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٨ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٥٦ .

(٣) لم نعثر على هذا الحديث فيما لدينا من مصادر .

(٤) رواه الطبراني والبيهقي ، عن أبي هريرة وفي سنده مقال .

البلوى والاختبار

واعلم وأيقن أن الدنيا كلها : كثيرها وقليلها ، حلوها ومرها ، أولها وآخرها ، وكل شيء من أمرها — بلوى من الله تعالى للعبد واختبار .
وبلواها وإن كثرت وتشعبت واختلفت ، فهو كله مجموع في خلتين : في الشكر والصبر . فأما أن يشكر على نعمه ، أو يصبر على مصيبة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضُكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ وَلِنَبْلُوَنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ﴾ (٦) .

(١) سورة الكهف ، الآية : ٧ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٧ .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٢٠ .

(٤) سورة محمد ، الآية : ٤ .

(٥) سورة محمد ، الآية : ٣١ .

(٦) سورة الأنعام ، الآية : ١٦٥ .

وأكثر من ذلك في كتاب الله تعالى . وإنما كانت بلوى آدم عليه السلام أقل من آية في كتاب الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (١) وهو كله لك بلوى . وإن أكثر ما يلي به العبد من أهل الدنيا : الناس . وأفتن الناس لك ، وأكثرهم لشغلك . إنما هو بمعارفك منهم . . وأشغل معارفك لك ، وأكثرهم عليك فتنة : من أنت بين ظهرائهم ، ينظرون اليك ، وتنظر اليهم ، ويكلمونك ، وتكلمهم . فإنك من لم يعرفك من أهل زمانك ولم تعرفه ، ولم تسمع به ، كأنك لم تبتل بهم ، وكأنهم لم يبتلوا بك ، وكأنهم لم يكونوا في هذه الدنيا التي أنت فيها .

فارجع في صبرك إلى الله ، واستعن به ، وانقطع إليه ، واستأنس بذكره ، واقلل من الخلطاء ما استطعت ، بل اترك القليل أيضاً تسلم ، لقول الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴾ ، وكان ربك بصيراً ﴿ (٢) . فاهرب من الفتنة .

فرجع صبرك إلى معارفك ، ومن أنت بين ظهرائهم ، فنظرك اليهم فتنة ، ونظرهم اليك فتنة ، وكلامك معهم فتنة ، وكلامهم معك فتنة ، وجفاؤك لهم فتنة ، وجفاؤهم لك فتنة ، وكرامتهم لك وكرامتك لهم فتنة لك .

واعتبر ذلك بموضع تمر فيه ، فيه معارفك ، وموضع تمر فيه ليس فيه أحد يعرفك .

وهكذا شهوات المطعم والملبس ، وشهوات العين : ما يحل النظر إليه وما لا يحل النظر إليه ، مما كان من ذلك في غير البلدة التي أنت فيها ، فأنت منها سليم ، وفتنتها مصرفة عنك إن شاء الله ، لان مؤنتها ساقطة .

وهكذا أنت في جميع أعمالك .

وعملك الذي تعمل إنما هو فتنة ، أنت فيه تريد أن توقى أعين

(١) سورة البقرة ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٢٠ .

الناس ، وأكثرهم من يعرفك بالخير ، فأعمالك لك فتنة . أن حجبت
فكنت خالياً ليس معك من يعرفك بالخير وتعرفه كان أسلم لك ، وإلا
فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها . وإن خرجت من بلدة أنت فيها
معروف بالخير ، فخرجت منها وهم لا يعلمون أين تريد ، فهو أسلم لك ،
وإن علموا فهي فتنة ، فانظر كيف تسلم منها .

وكذلك الغزو ، وبلوى أهل الغزو ، وما ينوبهم في مغازيهم من
الفتنة والبلية أعظم من بلية غيرهم ، وأعظم من الذين يعملون بأعمال
البر ، وهم قبل أن يدخلوا في هذه الأشياء في عافية ، فإذا دخلوا فيها
جاءت الفتنة من التحاسد بعضهم لبعض ، وطمعهم فيما يرجون من
السهام ، وطمعهم في الحملان ^(١) . وما يجعل الناس في سبيل الغزو ^(٢) .

ولقد سمعت رجلاً من المذكورين من أهل الغزو ، وممن له غناء
عند لقاء العدو ، واسم عظيم في المطوعة يقول : الخيل قد خرجت ،
ولم يقض لي الخروج معها ، أما السلامة فأحب أن يسلموا ، ولكني
أكره أن يغتموا وليس أنا فيهم .

ولقد رأيت من يغار على ما يقوى به بعض الغزاة حيث لم يعط
هو وأعطى غيره كما يغار الرجل على بعض حرمه . ولقد رأيت من
غزا ولم يغتم ود أنه لم يكن غزا .

ولا يؤمن يا أخي على كل من دخل في عمل من أعمال الدنيا والآخرة
جميعاً إذا لحقتهم في عملهم الآفات التي تفسد الأعمال ، وأن يدخل
عليهم الشيطان فيها من العيوب والفتن مثل هذا وأكثر من هذا ،

فليحذر الرجل على كل عمل يعمل من أعمال الدنيا والآخرة ،
وليراقب الله فيه ، ويعامله بضمير خالص ، ويحذر اطلاع الله على
فساد في ضميره ، ويحذر اطلاع المخلوقين على عمله ، فإن كناس

(١) الحملان : ما يحمل عليه الغازي من الخيل والابل .

(٢) يعني : ما يبرح به الناس للغزاة من العون .

الحشوش (١) . أكرم من هذا الصائم ، وهذا المصلي ، وهذا القائم ، وهذا الغازي يكره أن ينال المسلمون من غنائم الروم ، والجالس في بيته ببغداد يحب أن يغنموا منهم .

فاحذر رحمك الله من قرب منك وقربت منه ، فإن الذين بعدوا منك وبعدت منهم سلموا منك وسلمت منهم ، يود أقوام غداً أنهم لم يكونوا سمعوا بأذانهم كثيراً من أعمالهم التي هي في رأي العين يرجى لصاحبها عليها الثواب الجزيل ، والدرجات الرفيعة ، ويغبطون من لم يكن عمل مثل ما عملوا كثيراً من حسناتهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون .

يقال : أنها أعمال عملوها من أعمال البر كانوا يرون أنها منجيتهم ، فكانت هي مهلكتهم ، لما مزجها من الرياء ، وحب المحمدة من المخلوقين ، واتخاذ المنازل بالطاعات ، وإقامة الجاه ، وحب القدر ، والميل إلى ثواب المخلوقين .

فلما وردوا على الله عز وجل وجدوه قد أحبط أعمالهم وهم لا يشعرون ، لأنهم كانوا قد تعبوا ثواب أعمالهم من المخلوقين في الدنيا ، فافتضحوا ، وفضيحة ما هناك باقية ، ولم يجدوا من ثواب أعمالهم إلا كما وجد صاحب السراب وصاحب الرماد .

فليس اسم الاعمال يراد ، ولا تزيين ظاهرها ، ولكن تقوى الله ، وما يقرب إليه زلفى . فليت بين العبد وبين كل عمل يباعد من تقوى الله ومن الله بعد المشرقين .

قال العدو الخبيث : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ﴾ (٢) . فلو لم يكن في الكتاب من صفات إبليس إلا هذا قد كان ينبغي للناس أن يحذروه .

(١) كناس الحشوش : هو الذي يحمل فضلات الناس بعيداً عن العمران .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٧ .

ولو نظرت في أكثر الناس لوجدت أن أكثرهم إنما يؤتى من قبل البر ، وقلة العناية بتصفية الأعمال ، وما قد استحلّت النفس من حب المحمّدة من المخلوقين . وقد يؤتى قوم كثير من قبل الآثام ، إلا أن علامة الفتنة في الناس جميعاً مختلفة . وأكثر الناس إنما يعرفون من قد فتن بالآثام ، ولا يعرفون من قد فتن بالبر ، إلا القليل من الناس من أهل النور والفطن والفراسة والتوسم والكياسة .

وذلك أن الذي يعمل بأعمال البر وهو يحب فتنتها أكثر من الذي يخاف فتنتها . والذي يجهل فتنتها أكثر من الذي يعلم فتنتها .

ومن الناس من يعلم فتن الاعمال ومبطلاتها ، ثم يغلبه الهوى ، ومنهم من يعلم وتقل عنايته فيغفل .

واعلم أن الذي يعمل وقد علم الآفات التي تفسد الأعمال ، ومعه العناية بنفسه وعمله ، ومعه التيقظ وإزالة الغفلة ، وهو مع ذلك مشفق خائف من الآفات ما يكاد يسلم إلا من عصم الله تعالى ، فكيف الذي يجهل ويغفل ، ويغلبه الهوى ، ويجب دخول الآفة ؟ .

وقد طلبت الدنيا في زماننا خاصة بكل جهة : بالبر والآثام جميعاً افتتاناً ، فاحذر فتنة البر والآثام جميعاً ، لا ينزل بك ما نزل بغيرك في الترك والطلب . فلتكن همتك في النظر في مرآة الفكر كاهمة بالعمل ، وأكثر من ذلك ، فإنه ليس شهوات الذنوب والسيئات ، وشهوات المطاعم والمشارب والملابس والبناء والمراكب والمناكح والذهب والفضة بأغلب على أصحابها من شهوات الجاه وحب الرياسة ، وإقامة القدر ، واتخاذ المنزلة ، وقبول الأمر والنهي وقضاء الحوائج ، وحب العدالة عند الجيران والأصحاب والأخوان ، والمدحة على أصحاب البر في حسناتهم .

وقد تجد الرجل يغلب شهوة الذنوب ، فيترك الذنب ، ويصير إلى أعمال البر ، فيضعف عند تصفيتها ، وتغلبه شهوة ما فيها ، فيعمل

حسنات كثيرة بقوة واقتدار عليها ، وظمأ شديد وسهر ، ولا يقدر على أن يغلب شهوته على تصفيتها ، فلنأث الله وإثا إليه راجعون مما قد نزل بنا ، وما أعظم خطرنا ، وما أغفلنا عن عظيم الخطر .

ثم اعلم أنني لست أزهدك في طلب أعمال البر ، لأن كل عمل لا تعمله اليوم لا تجد ثوابه غداً ، ولكني أحذرك خدع الشيطان ، وهوى نفسك الأماراة بالسوء .

وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (١)

وقال : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٥) .

وقال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (٦)

وقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٨) .

(٥) سورة المائدة ، الآية : ٣٠ .

(٦) سورة يوسف ، الآية : ٨٣ .

(٧) سورة ق ، الآية : ١٦ .

(٨) سورة ص ، الآية : ٢٦ .

(١) سورة النحل ، الآية : ٩٨ .

(٢) سورة فلطر ، الآية : ٦ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ٥٣ .

(٤) سورة طه ، الآية : ٩٦ .

وقال : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ،
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ^(١) .

وقال : ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ ^(٢) .

وقال : ﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ^(٣) . مع أشياء كثيرة
في ذكر عداوة إبليس ، وذم النفس والهوى .

قلت : أرى من الناس أشياء يعاب مثلها ، وأحب أن أسلم من
التعير والازدراء والعيب فلا أدري أسلمت منه نفسي أم لا .

فقال : إن الانسان عند معرفة عيب نفسه أبله ، وعند معرفة عيب
غيره جهيذ ، فيحتقر عيب أهل كل صناعة ، وأهل كل عمل من
أعمال الدنيا والآخرة ، ويحتقر عيب من هو في مثل مرتبته . ويستعظم
ذلك من كل من رآه منه ، فإذا أتى على عيب نفسه جازه ^(٤) ، إلى
عيوبهم كأنه أعمى عنه لم يره .

وهو يطلب العذر لنفسه ، ولا يطلبه لغيره ، فهو في طلب عذرها
جهيذ ، وفي طلب عذر غيرها أبله ، وهو يضمن عند ذلك لصاحبه
ما يكره أن يضمنه لغيره لو رأى منه مثل ذلك العيب .

فإذا رأيت عيباً أو زلة أو عثرة من غيرك ، فاجعل نفسك مكانه ،
ثم انظر الذي كنت تحب أن يستقبلك به لو رأى منك مثل الذي رأيت
منه ، وأضمر ذلك له في نفسك ، فإنه يحب منك مثل ما كنت تحبه منه .

وهكذا إذا رأيت ما يستحسن ، فأردت أن تعرف علم السلامة
من الحسد له .

وبالحري أن يكون أخف الناس عليك عند الزلة : من يطلب لزلتك
عذراً ومخرجاً ، فإذا لم يجد للعذر موضعاً ساءه ذلك ، وأخفى مكانه .

(٣) سورة القمر ، الآية : ٣ .

(٤) جازه : تركه .

(١) سورة القصص ، الآية : ٥٠ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٨ .

وعند حسنتك يسر ، فإن لم يسر لم تسوءه . فهكذا فكن لهم عند الزلة
وعند الحسنة . فإذا كنت كذلك فلا تحب ازالة نعمة أنعمها الله على
أحد في دين ولا في دنيا ، ولا تحب أن يقيم أحد على معصية الله تعالى ،
ولا تحب أن يهتك ستره عند زلته ، فإنك إذا فعلت ذلك بقلبك ، زال
عن قلبك الحسد عن الدين والدنيا جميعاً .

ومتى غلبت عليك المسابقة إلى ضميرك بسوء المحضر ، فلا تغلبن
على مشاهدته بحسن المراجعة في جميع أمورك .

واعلم أنك مسبوق إلى ضميرك بالحسد ، وسوء الظن ، والحق ،
فاجعل المراجعة شغلاً لازماً ، وكن وفاقاً ، كما قال الأول : « المؤمن
وقاف » . وليس كحاطب ليل ^(١) .

فقف وطالع ضميرك بعين حديدة النظر ، نافذة البصر ، فإذا
رأيت أمراً محموداً فاحمد الله ، وامض ، وإذا رأيت مكروهاً داركته
بحسن المراجعة ، واستقصيت فيه ، فإن الذي دخل بيتك ولم يستأذنك
سوف يختبئ فيه ، وإن كان مظلماً فأنت لا تشعر ، إلا أن يكون
معك سراج من العلم مضيء واضح ، ويكون معك من العناية بأخذه
والانكار لما دخل فيه : ما لا صبر له عليه ، ولا طاقة له به .

ولو قد جربت لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول : يدخل داخل
منزلك بغير إذنك ، وهو داخل لا يؤمن أن يخرب المدخول عليه . فإن
رأى الداخل منك توانياً وتهاوناً كان هو المقيم بالمنزل ، المدبر له
فاستولى على حر بيتك وعلى حرمتك . وإن رأى منك انكاراً فيه ضعف
اختفى لك يلتمس سهوتك وغفلتك ، فإذا وجد فرصته خرب عليك
ما كنت أصلحت ، وهدم ما بنيت ، فافهم أن كنت تفهم ، واقبل
من الناصحين إن كنت تقبل .

فلو رحلت فيما أخذت المطايا ، فبلغت حيث تبلغ من البعد ،

(١) حاطب الليل : الذي يجمع الحطب بالليل ، فيجمع الحطب والهوم . يعني : لا يميز بين
رديه وجيد .

وأنفقت في سبيل ذلك حر بيتك ، كان الذي أخذت أكثر من الذي أنفقت وتعبت . فإنك تجد الخير الكثير في ميزانك يوم القيامة بصدق المراجعة ومبادرتها قبل أن تبرد عنك حلاوتها ، فإنها موهبة عظيمة من مواهب الله تعالى أكرم بها أهل خاصته ، وعظم النعمة عليهم فيها ، فإن عظم النعمة على قدر الحاجة .

فانظر هل راجعت نفسك وأمرك إلا وقد وجدت فيه موضع مرمية ومصلحة ، أو وجدته مفسوداً بعينه ، فلو لم تلحقه بالمراجعة لكان ذاهباً إلى يوم القيامة .

واعلم أنني إنما أكثر عليك وعلى نفسي من ذكرها لما قد استبان لي من الاضطرار والحاجة إلى المراجعة . فلو قد تعلقت بشيء من الخير فيها يكون ونسبتها ، وإلا فلا ، وما تركك لها إلا كالمستأنس لعدوه ، والمسلم نفسه إليه ، فهلك وأنت لا تشعر . وإن كنت متهاوناً بما أقول لك فإن أكثر حاجتك إليه في صلاة الفريضة ، ثم بعدها ، وهلم جرا في جميع أمورك .

ولو كنت ممن ينتقد أمره لعلمت ماذا دخل عليك من الندامة والحسرة ، حيث فارقتك المراجعة في صلاة الفريضة ، فلم تدر ماذا قرأ أمامك ، ولم تدر أي فرض كنت أم في نافلة ، في صلاة كنت أو في غيرها ، وأنت في رأس العين ممن يناجي ربه ، قد أصغيت بأذنيك إلى امامك ، وتحشعت بوقوفك ، وفرغت قلبك لاستماع ما يقرأ عليك امامك من كلام ربك في صلاة فريضتك ، التي ليس شيء أوجب عليك منها ، فرجعت منها وقد ظهر منك ما وصفنا ، وأنت كمن لم يشهدا لقلة ضبطك بالمراجعة لنفسك فيها .

ولعل الذي حضرت منها بقلبك أو عقلته فلم تسه عنه ، لو قيل لك : أنجب أن يكون ذلك منك كما كنت ساهياً ولك مائة ألف دينار لقلت : لا .

فاعتِن الآن بتماهد هذه المراجعة على قدر ما عرفت من حاجتك
اليها ، فإنما لك من عمرك تيقظك ، وتيقظك : مراجعة ما فيه منفعتك
وقربتك ، والمصير اليه بالعقل ، وما سوى ذلك غفلة وسهو يؤديان إلى
شهوة فيها غليان قلبك ، وفي ذلك موافقة نفسك الأمارة بالسوء ،
والهوى المضل عن سبيل الله ، العادل بأهله عن طريق محبته ، وفي ذلك
توثب العدو الخبيث الذي لا يألوك خبالا ، الذي يجري منك مجرى
الدم ، الذي يراك هو وقبيله من حيث لا تراههم .

قال : ترك ذكر عيب من غيرك ترجو على ذكره إذا ذكر به
الثواب ، لكيلا يخرجك ذلك إلى ذكر عيب من غيرك تخاف على ذكره
العقاب . وخذ نفسك بهذا الباب أشد الأخذ ، واحمل عليه من الناس
من استرشدك ، وأراد مثل الذي تريد ، فإن العبد أكثر ما يؤتى من قبل
التهاون باليسير ، وهو الذي يوقع في الأثم الكبير ، والتهاون باليسير
هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير ، فيكون أوله كان تحفظاً ، ثم صار
انبساطاً ، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير ، ثم صار من اليسير
إلى ما هو أكثر منه ، فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره
أن ترى فيه غيرك ، ففي ترك اليسير ترك اليسير والكثير .

وأقوى الناس على ذلك وأصدقهم عزمًا هو الذي إذا عزم أمضى
عزمه ، ولو يلو ، وأضعف الناس في ذلك أضعفهم عزمًا ، وهو الذي
يعزم ثم يحل عزمه ، ولا يكاد يمضي عزمًا . فهذا الذي يتلاعب به العبدو
والهوى والنفس ، ليس له عندهم قدر ، لكثرة معرفتهم بتناقض عزمه ،
وقلة استعماله له ، وأولوا العزم من الناس أفاضل الخلق من كل طبقة .

* * *

التوبة وحسن الظن بالنفس

قلت : فمن أرجى الناس لقبول التوبة منهم ؟

قال : أشدهم خوفاً ، وأصدقهم ندامة على ما كان منه ، وما شاهده الله واطلع عليه من زلله وخطئه ^(١) ، وطول غفلته ، ودوام اعراضه ، وأحسنهم تحفظاً فيما يستقبل ، وإن استورا في ذلك فأشدهم اجتهاداً في العمل .

لأن علامة صدق الندم على ما مضى من الذنوب : شدة التحفظ فيما بقي من العمر ، ومواثبة الطاعة بالجد والاجتهاد ، واستقلال كثير الطاعة ، واستكثار قليل النعمة ، مع رقة القلب ، وصفاته وطهارته ، ودوام الحزن فيه ، وكثرة البكاء ، والتفويض إلى الله تعالى في جميع الأمور ، والتبري إليه من الحول والقوة ، ثم الصبر بعد ذلك على أحكام الله عز وجل ، والرضا عنه في جميعها ، والتسليم لأمره كلها .

وقال لي : قد علمت من أين غلطت ، أحسنت الظن بنفسك ، فتاقت إلى درجات المحسنين بخلاف سيرتهم من غير انكار منك عليها لمساوئ أعمالها ، ولا دفع لما ادعته من أعمال الصادقين . وأسأت الظن بغيرك ، فأنزلتهم في درجة المسيئين اغفالا منك لشأنك ، وتفرغت للنظر في عيوب غيرك .

فلما كان ذلك منك كذلك ، عوقبت بأن غارت عيون الرحمة والرافة من قلبك ، وانفجرت إليه أنهار الغلظة والقسوة ، فأحببت أن

(١) الخطأ : هو الخطأ في الرأي .

تنظر إلى الناس بالازراء عليهم ، والاحتقار لهم ، وقلة الرحمة ، وأردت أن ينظروا اليك بالتعظيم والمهابة والرحمة ، فمن وافقك منهم على ذلك نال منك قرباً ومحبة ، ونلت أنت من الله تعالى بعداً وسخطاً ، ومن خالفك فيه ازداد منك بعداً وبغضاً ، وازددت أنت من الله بعداً وسخطاً .

وأطلت في ذلك كله أملك ، فطاب لك المسير في طريق التسويف ، ومدارج الحيرات ، فاشتدت رغبة نفسك ، واستمكن الحرص من قلبك ، فعظمت لذلك في الدنيا رغبتك ، وشحت فجمعت إلى شهواتها ، واحتوت قلبك لذاتها ، فحال ذلك بينك وبين أن تجد حلاوة سلوك طريق الآخرة ، فقلبك حيران على سبيل حيرة ، قد اشتبهت عليك سبل النجاة ، وشقق حجاب الذنوب ، فأنت لقربها ، وطاب لك شم ريحها ، فوصلت بذلك إلى محض المعصية ، فادعيت ما ليس لك ، وتناولت ما يبعد مرامه من مثلك .

ثم أخرجك ذلك إلى أن تكلمت لغير الله ، ونظرت إلى ما ليس لك ، وعملت لغير الله ، فكنت مخدوعاً مسبوعاً ^(١) عند حسن ظنك بنفسك وأنت لا تشعر ، ومستدرجاً من حيث لا تعلم ، فكان ميراث عملك الحب ^(٢) ، والجريرة ^(٣) ، والغش ، والخديعة ، والخيانة ، والمداينة ^(٤) ، والمكره ، وترك النصيحة ، وأنت في ذلك كله مظهر لمباينة ذلك .

فمن كانت هذه سيرته ، فلا ينكر أن يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب . فلو كان لك يا مسكين أدنى تخوف لبكيت على نفسك بكاء الثكلى المحبة لمن أثكلت ، ونحت عليها نياحة الموتى حين غشيك شؤم الذنوب ، ولو بكى عليك أهل السموات وأهل الأرض لكنت مستوجباً لذلك ، لعظم مصيبتك ، ولو عزاك عليها جميع الخلق تعزية المحروب

(١) مسبوعاً : متعرضاً للخطر ، كما تتعرض السباع .

(٢) الحب : اللوم والخداع .

(٣) الجريرة : الكذب والنفاق .

(٤) المداينة : الملاينة بغير ما في القلب .

المسلوب ^(١) ، لكنك مستحقاً لذلك ، لأنك قد حربت دينك ، وسلبت معرفتك بشؤم الذنوب ، فركبك ذل المعصية ، وأثيت اسمك في ديوان العاصين ، واستوحش منك أهل التقوى إلا من كان في مثالك .

فأخذ الذين أرادوا الله وحده في طريق المحبة له ، وسلكوا سبيل النجاة إليه ، وأخذت في غير طريقهم ، فملت حين خالفت طريقهم إلى غيره ، فبقيت متحيراً ، وعن وجع الاصابة متبلداً ، وبمثل هذه الأسباب التي اشتملت عليها طريقتك يستدل على خسران القيامة ، وبالله نعوذ ، وإياه نسأل عفواً وتقريباً منه مع المحسنين إنه لطيف خبير .

قلت : أما تخاف أن تكون هذه المعرفة حجة عليك ، والاشتغال بوصفها خدعة من الشيطان ، ومشغلة وصدأ عن نفعها ؟ .

فقال : واسوأناه من غفلة واصفها عن محاسنها ، ومن رام رمى فلم يخطئ حيث أراد . فأما الأمن فمحرم ، وأما الخوف ففرض على من يؤمن بالله واليوم الآخر ، بالوعد والوعيد ، وقد علمت أن القصد إلى نفس المحبة ، والعناية بها ، أبلغ لصاحبها ، وأكثر له في المنفعة منه بوصف المحبة ، لأن طلب نفس المنفعة غير طلب وصف المنفعة ، وإنما اشتغلت بالوصف اضطراباً حيث رأيت نفسي خارجاً منهما جميعاً ، فاعتنيت بمعرفة وصفها ، والهداية إليها ، رجاء أن يوصلني ذلك إلى نفس المنفعة ، والهداية إليها ، والله المستعان على ما نقول وما نضممر .

وأن العبد بين تسع مخاوف :

فأولها : أن أخاف ويدعو الله ، ويتضرع إليه : ألا يكمله إلى حسناته التي يتعزز بها في عباد الله ظلماً وعدواناً .

(١) المحروب : هو الذي فقد عزيزاً له عنوة . والمسلوب : هو الذي سلبه قطاع الطرق أو اللصوص .

والثانية : أن يخاف من كفران النعم التي قد غلب عليه البطر بها ^(١) ، فأشغله عن الشكر عليها .

والثالثة : خوف الاستدراج ^(٢) بالنعم وتواترها .

والرابعة : خوف أن يبدو له غداً من الله ما لم يكن يحتسب في طاعاته التي يرجو ثوابها ، ولم يعدها من ذنوبه .

والخامسة : الذنوب التي عملها ، واستيقن بها فيما بينه وبين الله تعالى .

والسادسة : تبعات الناس قبله .

والسابعة : أنه لا يدري ما يحدث له في بقية عمره .

والثامنة : أن يخاف تعجيل العقوبة في الدنيا ، والنكال فيها قبل الفوت .

والتاسعة : الخوف من علم الله تعالى فيه ، وفي أي الدارين أثبت اسمه في أم الكتاب فأحذر الذنوب ، فإن شؤمها قريب ، وظلمتها شديدة ، واحذر الحسنات التي تباعد بينك وبين طريق الصالحين ، فما أقرب القاريء المتعبد بغير معرفة : أن يتكبر على عباد الله عز وجل ، ويمتن على الله سبحانه بالحسنات التي لو وكله إليها كان فيها هلاكه ، وما أقرب من أن يطلب الناس بما أراده الله منهم من الطاعة له ، والاحترام ، والقدر العظيم .

ولا يؤمن على القاريء غير الفقيه أن يسئ إليهم ، ويطلب منهم

(١) البطر : احتقار الحق ودفعه تحجراً .

(٢) الاستدراج : هو أن يعطي الله تعالى العبد على عمل الشر من خير الدنيا ما يظن معه أنه مرضي عنه من الله تعالى . والله تعالى يقول في محكم كتابه : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » وأمل لهم ، إن كيدي متين . (الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣) .

الاقرار بالاحسان ، ويعطيهم من نفسه ما أراد الله منه . إن الله تعالى
أراد منه : أن يتزين له ، ويتعبد له ، ويخلص له العمل وحده ، فأعطى
هو للمخلوقين ذلك من نفسه ^(١) .

* * *

(١) أسوأ الناس هم القراء المتعبدون بغير فقه . وقد ذكر لعبد الله بن المبارك عابد تعبد بغير
فقه فقال : « لمت بيني وبينه بجرأ » .

المدح والذم

قلت : الرجل يقول : أنه ممن لا يريد بعمله جزاء ولا شكورا ، وهو معروف بأعمال البر : بالصلاة والصدقة والصيام وغير ذلك ، وقد مدحه قوم فسرّه ذلك جداً ، وفرح به وذمه آخرون فساءه ذلك جداً وكرهه ، حتى عرف من نفسه التغير لكلا الفريقين جميعاً ، كيف يعرف هذا نيته ، وحب المحمّدة وكرهية المذمة ثابت في قلبه ، والمراثي يحب الثناء ، ويكره المذمة ؟ .

قال : إنه لا يجب على الناس أن يكرهوا الثناء الحسن والمحمّدة ، ولا يجب عليهم أن يحبوا المذمة ، عملوا الحسنات أو لم يعملوا ، إذا لم يكن ذلك منهم من معنى فاسد ، لأن المراثي وإن كان يريد على أن يحب المحمّدة ويكره المذمة ، فإن الصادق لا يجب عليه أن يكره الثناء ويحب المذمة .

وإن أكثر الصادقين قد مدحوا ، وأثنى عليهم ، ولم يضرهم ذلك شيئاً ، وإنما الفرق بينهما : أن المراثي : ارادته وأمله في عمله جاه الدنيا ، والمنزلة عند أهلها ، فأفسد عمله بنيته وارادته ، نال الذي أراد من ذلك أو لم ينله ، حمدوه على عمله أو لم يحمدوه ، ذمّوه أو لم يذمّوه . وغير المراثي إنما كره المذمة لحال ما فيها من الكراهية ، مثل السقوط من أعين الناس ، والبغضة والمقت من المؤمنين ، وأشباه ذلك والثناء الحسن والقول الجميل أحبه لموضع ستر الله ، وما جاء من الرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، والمحبة من الناس ، ومودتهم له ، وكان اعتقاد نيته وعزمه في أول أمره وآخره : ألا يريد بذلك إلا وجه الله وحده والدار الآخرة ، حمدوه أو ذمّوه ، أحبّوه أو أبغضوه .

وربما كان اعتقاد الرجل عند عمله : ارادة ا خرة ، ثم ينتقل قليلاً قليلاً إلى ارادة الدنيا . وذلك أنه شيء خفي ، والعامّة تقل معرفتهم به ، وعنايتهم بذلك ، وتكثر غفلتهم وسهوتهم عنه ، وقد كان ينبغي أن تكون عناية المؤمن بذلك أكثر من عنايته بما يعمل من الأعمال الظاهرة ، لأن أعمال الجوارح لا يمكنه أن يقبلها ولا يغيرها عن حالاتها ، والنية لا يأمن عليها الفساد وإن كانت صادقة صحيحة : أن تتحول من أحسن ما كانت عليه إلى أقبح ما تكون عليه ، وأفسدها لعمل صاحبها .

وقد قال النبي ﷺ : « الأعمال بالنية ، وإنما لامرئ ما نوى » (١) فالأعمال بالنية تكون ، وعن النية تكون ، فالعبد أحوج إلى معرفة النية ، ومعرفة فساده ، إذا كانت الأعمال إنما تصح بتصحيحها ، وتفسد بفسادها ، وإن جميع ما ذكره إنما هو وصف للعمل ، وللحقيقة والصحة علامان ودلالات غير هذا .

وإن الأعمال كلها عملان : عمل تمكن فيه النية ، وعمل لا تمكن فيه النية . والعمل لغير طاعة الله ، أو على غير سنة رسول الله ﷺ لا تمكن فيه النية ، والذي تمكن فيه النية : عمل في طاعة الله على السبيل والسنة . والناس فيه صنفان : صنف يعرفون النية ، وصنف لا يعرفون النية . والذين يعرفونها صنفان : صنف يقنعهم النظر فيها بالجزاف ، والأماني ، وصنف لا يأتمنون أنفسهم عليها ، ولا يعنون إلا بما يصح لهم من ذلك عند الميزان ، وهو المحنة ، محنة نفسك .

ومن الناس من يرى أنه يكره المحمدة والثناء اشفاقاً على عمله ، وخوفاً من فتنته ، ويجب على هذا ألا يعبأ بما ينخيل اليه من ذلك ويظن ، لأن كثرة ما يظن الناس من ذلك ليس كما يظنون ، حتى ينظروا إلى تحقيق صدقه عند البيان ، فليراجع العبد نفسه إذا أثني عليه أو مدح ، أو ذموه ونسبوه إلى ما يكره ، فإن كان ما أعجبه من الثناء والمدحة

(١) أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن عمر رضي الله عنه .

إنما أعجبه لمعنى ما قلنا من السر ، والرجاء في الثناء الحسن والقول الجميل ، لمثل قوله تعالى : ﴿ وَالْقِيَتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي ﴾ (١) .
﴿ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ (٢) . قال : الثناء . وقال : ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ (٣) . قال : الثناء الحسن . وقوله : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ (٤) . قال : الثناء الحسن .

وقال النبي ﷺ في الرجل يعمل العمل يريد به الله ، فيحمده عليه الناس ، ويثنون عليه به فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » (٥) .
وقوله ﷺ في العبد إلا أحبه الله : « لم يخرج من الدنيا حتى يملأ مسامعه مما يحب » (٦) . وقوله : « أنتم شهداء الله في الأرض » (٧) . وأشبه ذلك في الكتاب والسنة .

فإن كان سروره بما ذكر به من الخير شكراً لستر الله عليه ، وحمداً منه لله إذ جعله الله عز وجل ممن يذكر بعلامة الخير ، فليس ذلك بسرور فاسد ، ولكنه شكر وطلب مزيد . وعلامة سلامة نيته في ذلك : أن يزداد لله تواضعاً ، ولآلائه شكراً ، وفي طاعته اجتهاداً ، ومع ذلك ينبغي أن يرد نفسه إلى طريق المخافة من الاستدراج ، ويكون ما خفي من عمله أحب إليه مما ظهر ، مخافة ما يلحق أهل الصلاح من الفتنة فيما يستمعون من المدحة والثناء . ولما جاء من النهي والكراهة للتركية والمدحة أن يسمع الرجل صاحبه ... وذلك مثل قوله ﷺ : « مَن مَدَحَ أَخَاهُ فِي وَجْهِهِ فَكَأَنَّمَا أَمَرَ عَلَى حَلْقِهِ مُوسَى رَمِيضاً » (٨) . ومثل

(١) سورة طه ، الآية : ٣٩ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية : ٢٧ .

(٣) سورة النحل ، الآية : ١٢٢ .

(٤) سورة الشعراء ، الآية : ٨٤ .

(٥) أخرجه أحمد ، والطبراني ، وأبو داود ، عن أبي هريرة .

(٦) أخرجه الطبراني والبراز عن سعد بن أبي وقاص .

(٧) أخرجه الترمذي في التفسير عن ابن عباس .

(٨) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ، عن الزبير بن العوام .

قوله عليه السلام : « لو سمعتك ما أفلح » ^(١) . ومثل قوله ﷺ : « عَقَرَتِ الرجل عَقْرَكَ الله » ^(٢) . وهذا ونحوه كثير .

فإذا كان مذهبه ونيته : شكر الله على ستره ، وحمد الله على نعمته ، ويكون ما سبق من السرور إلى قلبه في ثناء إذا سمعه رجاء القدوة به إذا كان ممن يصلح أن يقتدى به ، لقول الله عز وجل : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ^(٣) . يقال : أئمة في الخير يقتدى بنا .

فإن كان كذلك رجوت ألا يضره ذلك ، ولا يفسد عليه عمله . وقد ذكر عن مطرف ^(٤) . أنه قال : « ما سمعت ثناء أو مدحة إلا تصاغرت إلى نفسي » . وقال زياد بن أبيي مسلم : « ليس أحد يسمع ثناء أو مدحة إلا تراءى له شيطان ، ولكن المؤمن يراجع » . فقال ابن المبارك ^(٥) : صدق كلاهما . أما ما ذكر زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكر مطرف فذلك قلب الخواص .

وإن كان مذهبه ونيته إذا سمع ذلك وسر به : طلب الرفعة والمنزلة عند الناس ، فما أسوأ حاله في احباط عمله .

وأما المرائي فهو الذي يكون مذهبه ونيته في أول عمله وآخره . طلب الثناء والمحمدة والرفعة والتكرمة عند الناس ، واحراز المنافع به ، فذلك الذي جاءه الويل والثبور في الدنيا والآخرة .

فإن كان يعرف معرفة حق : أن ما أعجبه لهذا المعنى ، ولم يعجبه

(١) أخرجه الشيخان ، عن أبي هريرة .

(٢) أخرجه الشيخان ، عن عبد الله بن عمر .

(٣) سورة الفرقان ، الآية : ٧٤ .

(٤) مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري البصري . الفقيه ، العابد ، كان مجاب الدعوة ،

توفي عام ٩٥ هـ . انظر : (تهذيب التهذيب ١/١٧٣) .

(٥) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك ، الحنظلي ، المروزي ، الفقيه الحافظ الزاهد ،

كان رأساً في الذكاء والسخاء ، وكانت له تجارة واسعة ، ينفق منها على أخوانه ، وكان

كثير الأسفار ، كان ثقة حافلاً . توفي عام ١٨١ هـ . انظر : (تذكرة الحفاظ ١/٢٧٤) ،

المعبر ١/٢٨٠ ، وتهذيب التهذيب ٥/٣٨٢ - ٣٨٧) .

ذلك لما نال من الجاه عندهم ، فلا جناح عليه ، وعلامته : أن يزداد تواضعاً ، ويحدث خوفاً من الاستدراج ، وما يخفى من عمله فهو أحب إليه مما يظهره ، لأنه طمع في طريقة الصالحين ، فعلى قدر ذلك ينبغي أن يرغب في أعمالهم ، وما نالوا به اسم الصلاح ، وصاروا من أهله ، مع ما يلزمه من الخوف والفتنة مما يلزم أهل الثناء والمحمدة إذا أثنى عليهم أو مدحوا ، مثل قوله عليه السلام : « عقرت الرجل » . ومثل قوله : « لو سمعت ما أفلح » . وقوله : « قطعت عنق أخيك » ^(١) . وقوله : « إياكم والمدح فإنه الذبح » . وقوله : « إذا رأيتم المداحين فاحشوا في وجوههم التراب » ^(٢) . وقوله : « لو مشى رجل إلى رجل بسكين مرهف كان خيراً له من أن يثني عليه في وجهه » ^(٣) . ومثل هذا كثير .

وصاحب المدحة الخوف عليه أكثر من الرجاء ، لأن الخوف لا يضره ، والرجاء لا تؤمن فتنته .

وعلامة أصحاب الجاه في الدنيا ، وأصحاب الرياء المحبين لذلك : أنهم إذا سمعوا الثناء والمحمدة أحبوا ذلك ، وازدادوا غرة وإعجاباً بأنفسهم ، وغفلة عن الاستدراج ، وتمادوا وتمنوا وطمعوا أن ما ظهر عليهم من أعمالهم كان أحب إليهم مما خفي ، ولم يخافوا من فتنته ولا من آفته .

وكذلك إذا كره المذمة إنما كرهها لأنه أحب أن يكون مكانها مدحة وثناء ، لينال بذلك الجاه والقدر والمنزلة والرفعة عند الناس ، فهي كراهية سقيمة مذمومة ، وصاحبها مغرور مخدوع .

(١) أخرجه الشيخان ، وأبو داود ، وابن ماجه ، عن أبي بكر أن رجلاً أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : « قطعت عنق صاحبك » ثلاث مرات . ثم قال : « إذا أثنى أحدكم على صاحبه لا محالة فليقل أحسبه كذا ، ولا أذكى على الله أحداً » .

(٢) أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن همام أن رجلاً أثنى على عثمان فأخذ المقداد تراباً وحشاً في وجهه ، وساق الحديث .

(٣) رواه أبو داود والترمذي ، عن سمرة بن جندب .

وإن كان إنما هي حب منه لستر الله عليه ، وكراهيته هتك السر عنه ، لأنه لم يحفته الناس حتى جاءه المقت من عند الله قبل مقت الناس فإن كانت الكراهية إنما هي من هذه الجهة ، فإن هذا يكرهه الصادق وغير الصادق ، فلا يلام عليه .

وعلامته : التضرع والاستكانة والمراجعة والنظر في التخلّص إلى طريق محبة الله تعالى ، وسبيل الاستقامة ، ومحبة الايمان ، والجد فيه .

وأبين من ذلك : أنه كل من زعم أنه يريد بعمله وجه الله ، لا يريد من أحد على عمل يعمل به من أعمال الصالحات جزاء ولا شكوراً ، ثم عرفه الناس بعمله ، وذكر وصار معروفاً عندهم ، ونال منهم الرفعة فإن كان يعرف من نفسه أنه إذا عرض عليها أن يتحول اسمه وما نال بعمله من الناس من الثناء والمحمدة إلى غيره ، ويبقى هو عند الناس كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، ذكر ولا غيره ، فكان هذا أحب إليه ، فأمره مرجو .

وإن كره أن يتحول ذكره الذي كان عليه إلى غيره ، ويبقى هو كمن لا يعرف له عمل من أعمال البر ، فدعواه حينئذ باطلة ، لأن الذي يقول : أنه يريد بعمله ولا يريد غيره ، فإذا تحول ذكره إلى غيره لم يحول الذي عمل له العمل ثوابه إلى غيره ، ولم ينقصه من ثوابه شيئاً ، ولعله أن يكون أكثر له عنده ، وأقرب مثوى . والذي كان يزعم أنه لا يريد به كره أن يزول عنه الاسم الذي ثبتت له عندهم به المنزلة ، وكره أن يبقى عند من زعم أنه لا يريد به بلا ذكر عمل يعرفونه به .

ومثل هذا ينظر ، إن كانت له خصلة عند الناس من خصال البر ، فنسبوه إليها ، ويظنون أنه صاحبها ، غلطاً منهم بها وجهالة ، فكره أن يعرفوا ذلك أو يطلعوا عليه ، وأنه ليس ممن يعمل بتلك الخصلة ، أو له عمل من البر ، وعند الناس أن ما يعمل هو من البر أكثر ، فيكره أن يطلع الناس عليه ، فلا يعبأ بمحبة نفسه عند الذي يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يحب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يمكن أن يكون واحد

يجب أن يحمد بما لم يفعل ، ولا يجب أن يحمد بما قد فعل حتى يحبهما جميعاً .

كذلك إن صحب رجلاً معروفاً بالصلاح والعبادة عند الناس ، أو له سبب قد نال به ذكراً من غيره ، فكره أن يسقط ذلك عند الناس ولم يعبأ بمحبة نفسه عندما يعمل من أعمال البر ، فإنه ممن يجب أن يحمد بانتسابه إلى غيره ، فإنه لا يمكن أن يجب الذكر بعمل غيره ، ولا يجب أن يذكر بعمل نفسه الذي يعمل هو حتى يحبهما جميعاً .

فإن وجد نفسه في هذه المواضع صادقة على ما يجب عليها فيه الصدق ، فأرجو أن يكون من أهل الصدق إن شاء الله تعالى .

* * *

اليقين والعز

وأما اليقين فعند العمل ، والصدق فيه : مشاهدة الثواب والعقاب ، فليس يكون بكثرة النفقة ، ولا بكثرة الكلام ، ولا يحتاج فيه إلى تحريك الشفتين ، ولكن بالايمان وبالعقل ، وبالمعرفة ، وحسن التدبير في ظاهر أمر العبد وباطنه ، فتعرف الصدق ، وتعرف ضده من الكذب ، وتعرف الخير ، وتعرف ضده من الشر ، فتعمل في إثبات الصدق ونفي ضده ، وتعلم الأصل من الفرع ، فيكون الشغل في إثبات الصدق من وجه الأصل ، وانتفاء ضده من وجه الأصل ، فإن الأصل يأتي على الفروع .

وما دام العبد يشغل بالفرع عن الأصل ، فليس لشغله فناء ما دام الأصل ثابتاً ، وكلما ذهب فرع أخلف بدله آخر .

وحب العز أصل ، ومنه مخرج حب الرئاسة والجاه عند الناس ، ومنه الكبر والفخر ، ومنه الغضب والحسد ، ومنه الحقد والحمية ، والعصبية . والنفس عاشقة له ، وهو قرّة عينها ، وهو أحب إليها من أم واحد لواحد ، وبلغني أنه آخر ما يبقى في قلوب تاركي الدنيا للآخرة ، وذلك لصعوبة تمكنه من النفس .

فالعمل الصالح من غير المرید المستحکم من أهل القراءة ، سلاحه الذي يقوي به سلطانه هو العز في النفس ، والفخر بالعمل ، والازراء على الناس . وقد رأينا من يعمل أعمال الصالحين من الصلاة والصيام والصدقة والحج والجهاد وعزة في نفسه زائد . نعم ، وقد رأينا من يتواضع لطمع زيادة في العز ، ولا أعلم أنني رأيت أحداً من أهل النسك خالياً منه ، يعني من العز ، فإن كان يجد بقاء حلاوة طعمه معه ، فلا

يفلح معه عابد ولا زاهد ، وكيف يكون زاهداً والزهد لا يأتي معه
في مأوى واحد .

فمن عالج نفي العز من نفسه ، ووقفه الله لذلك ، فنال نفيه ، سهل
عليه المسير في طريق محبة الله عز وجل ، ومحبة الايمان ، وسبيل الاستقامة ،
ومدارج الصالحين ، وهان عليه معالجة الصدق في عمله ، واطمأنت
نفسه إلى التذلل والتواضع ، وطاب له طريق العدل ، لأنه لا يقدر
أن يحب للناس ما يحب لنفسه وفيه العز ، ولا يقدر على كظمه الغيظ
وفيه العز ، ولا يقدر على قبول الحق وفيه العز ، ولا يقدر على التواضع
الذي هو شرف التقوى وحليتها وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصديق
وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك
الحقد وفيه العز ، ولا يقدر على ترك العصبية وفيه العز ، ولا يقدر
على سلامة القلب وفيه العز ، ولا يقدر على النصيح وفيه العز ، ولا يسلم
من الازراء على الناس وفيه العز .

فما أكثر ضرره ، وأعظم فساد ، وأظهر أمره ، وأقل رشده ،
وأبين غيه عند الخاص والعام وما أغفل الناس عنه ، وأقل معرفتهم
به ، وأشد متابعتهم له .

فالهوى حكمه ، والكبر أخوه وعضده ، والجور سيرته ، والغضب
سلطانه ، والرياء عون من أعوانه ، له يكسب ، واليه يؤدي ، والعجب
أضعف عون له ، والحسد أمير جنوده ، والغل صاحب مشورته .
وقال رسول الله ﷺ : « الكبر والحسد يأكلان الحسنات كما تأكل
النار الحطب » . وقال بعضهم : « الغل والحسد » ^(١) .

والعز في الخلق عام ، في العبيد والاماء ، والفقراء والأغنياء ،
والضعفاء والأقوياء ، والقراء والعلماء ، وكل واحد منهم يظهر منه
على قدر ما يمكنه اظهاره ، ومن لم يمكنه الاظهار عامل الناس به سرّاً

(١) لفظ ابن ماجه ، عن أنس . وأخرجه أبو داود ، عن أبي هريرة بلفظ : « إياكم
والحسد فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » .

في نفسه ، لأنه ما دام في الانسان لا يترك حفظه منه سرّاً ولا علانية ..
أما تراه كيف يتغيظ في نفسه على غيره ، وكيف يحسد ، ويدور حوله
يطلب عوراته ، وكيف يحكم فيه بحكم الهوى ، ولو ملك من ذلك
في الظاهر ما ملك في الباطن لأظهر مثل الذي أضمر من ذلك في الباطن .

وأقبح أمره ، وأفسده له ، وأشدّه فضيحة ، إذا كان في القارىء ،
لأنه لا يكان يتعزز على غيره بسبب من الأسباب إلا بأسباب الدين ،
والأرايت فيه أثر ذلك .

فسبحان الله ، ماذا يلقي القراء خاصة من العز ومن أعوانه ، يدلك
على ذلك سرعة حقدهم ، وكثرة غضبهم لأنفسهم من طريق الاعزاز
لها ، وما يجدون ^(١) . على الناس فيه مما لا خطر له ، وذلك كله من داء
العز وحركته أمر لم يجز لأهل الجنة ولا للملائكة ، ولا للنبين ، يريد
القارىء أن يجوزه لنفسه ، وأن يجعله فوق رأسه .

ولأنما كان ينبغي للصادق في قراءته العمل في اطفاء العز من قلبه
من أول أمره ، وأن يجعله تحت قدميه ، ولو أن رجلاً صلى الغداة ،
ثم أقبل على نفسه ، وأصاح خصلة من خصال العز ، ليس العز كله ،
وآخر تصدق بوزن نفسه ذهباً على أكباد جائعة ، من وجه طيب ، لكان
الأول أغبط ، وكانت النعمة عليه أكبر ، والشكر عليه أكثر عند أهل
المعرفة والعلم .

فكيف إذا أصبح وهو لم يكن له همة إلا العناية بالعز لنفسه ،
لتجربته له ، ومعرفته به .

وآخر أصبح ولم تكن همته ولا محبته إلا العناية بنفي العز من قلبه ،
ولزوم التواضع ، وذل النفس ، لتجربته لنور التواضع ، ومعرفته
بفوائده ، فهيناً لمن شغله مثل شغله ، ما أنفعه من شغل ، وأرضاه
عند مليكه ، وأروحه للقلب .

(١) يجدون : أي ما يحدقون ويضنّون من الغضب .

فاعتبر برجلين أمرا بالعبودية ، واحدهما أحب أن يجعل نفسه عبداً
كما أمر ، وأحب الآخر أن يجعل نفسه ملكاً ، أي هذين أولى بالجائزة
من المولى ، وأيهما يستأهل العقوبة الموجهة ؟

قلت : وقد وصفت من فساد العز وضرره وشره ما قد وصفت ،
فصنف لي طريق التجرز والامتناع منه ، فإن المريض إذا عرف داءه
أحب أن يعرف دواءه ، وهكذا من أحب أن يعرف عيب نفسه ، يحب
أن يعرف الذي يصلح به عيبه .

فقال : إن ابن آدم تكلف نزول الطير من جو السماء فأنزله ،
وتكلف خروج الحوت من قعر البحر ^(١) فأخرجه ، وتكلف اخراج
الذهب والفضة من بطن الأرض فأخرجها ، وتكلف أخذ الدواب
والأنعام والوحوش والسياب من البراري والغياض ^(٢) فأخذها وذلها
وسخرها ، وتكلف أخذ الأفاعي والحيات فأخذها ، وتكلف معالجة
الشياطين فعالجها ، وتكلف معرفة النجوم في السماء وأسماءها ومجاريها
ومطالعها ومغاريها ، وتكلف منازل الشمس والقمر ومجاريهما ومطالعهما
ومغاريهما ، وتكلف معرفة الولد إذا لم يكن من أبيه ، فعرف ذلك كله
لما تكلفه . وتكلف مرض المريض وأسباب علله بالنظر إلى بوله من غير
أن ينظر إليه ، فعرف داءه وعرف دواءه ، فعرف كل ذلك . وتكلف
تعلم سير الملوك الماضية من القرون الأولى ، فكتبها ودرسها .

وكل ما تكلف من ذلك فلئما حمل نفسه على تكلفه لطلب الزيادة
من الدنيا ، وليس في هذا من أمر دينه الذي كلفه شيء ، وكلف تقويم
نفس واحدة فلم يقيم بتقويمها ، وليس عليه من فساد غيرها شيء ، لم
يكلف إلا اصلاح فساد نفسه وحدها ، فلم يقيم باصلاح فسادها ، فجعل
بعض الصلاح وعلم بعضاً ، فما جهل فهو جاهل به ، لا يتكلف علمه ،
وما علمه من فسادها فهو مضيع لاصلاحه ، ولم يكلف أحد أن يصوم

(١) في الأصل : البحار .

(٢) الغياض : جمع غيضة ، وهي الأجمة ، أي الموضع الذي يكثر فيه الشجر ويلتف .

ولا يصلي ولا يزكي ولا يحج ولا يتوضأ ولا يغتسل عن أحد ، إنما كلف نفسه ، ليس لأحد من صلاح أحد شيئاً ، وإنما صلاح كل امرئ وتقواه لنفسه ، وفي ميزانه ، ليس في ميزان غيره من شيء .

وهكذا النية في الأعمال ، لا تنفع نيتي عملي ، ولا تنفع نيتك عملي إذا كانت صحيحة ، ولا تضره إذا كانت سقيمة ، وإنما المنفعة والمضرة على صاحب النية ، وصاحب العمل ، وإنما هي نفس واحدة ، فإذا صار إلى أمر نفسه لم يعرف خيرها من شرها ، ولا أقبالها من إدبارها ، يعمل الخير فلا يدري مقبل هو فيه أم مدبر إلا بظاهر العمل والدعوى ، ولا يدري أي شيء يعمل له الدنيا أو للآخرة ، ليس يميز بين الأمرين ، ولا يفاضل المهمة فيه ، والمحبة له ، ولا الخشية فيه ، ولا يتوقف ، ولا يحسن أن يطالع ضميره ، فهو يفسد الخير بالشر ولا يشعر ، هو في ظاهره مقبل ، وهو في باطنه مدبر ، هو في ظاهره آبق إلى الله ، وهو في باطنه آبق من الله .

فسبحان الله ، ماذا تكلف المسكين من معرفة ما لم يكلف ، فشغل عنايته فيه ، وشغل فهمه به ، وأما الذي جهل فضيع من معرفته فهو ما قد كلف ، وأخذ عليه فيه الموائيق .

يدخل عليه الشر والفساد فلا يدري من أين دخل ، وأتى أثم ، وكيف هو ، وما السبيل إلى التخلص منه ، فبقي عند ذلك تائهاً حيران ، وقد عالج ما في الهواء ، وما في البحار ، فعرفه لما شغل عنايته به لمعنى دنياه الذي قد تكفل الله له منها بما قدر له ، وضمن له الوفاء بها ، أقبل عليها أو أدبر عنها ، فغلب هو المسكين الخلق ، وغلبته نفسه ، ولو غني بمعرفة فساد نفسه وصلاحها ، وخيرها وشرها ، وخاف التلف عليها ، كما غني بمعرفة ما ذكرنا من أمر دنياه المضمونة له ، لعرف من فسادها وصلاحها ما عرف من ذلك ، وقدر منه على ما قدر من ذلك ، ولكنه رضي أن يسلك طريق الدين بالجهالة ، ولم يرض أن يسلك طريق الدنيا إلا بعلم وبصيرة .

ومنى شئت رأيت في طريق الدنيا ، وهو يحسب أنه في طريق الآخرة ،
ومع ذلك فإن بعض المبدعين عن الله تعالى ، المعرضين عنه ، قد تسموا
علماء ، ونصبوا أنفسهم للدلالة على الله ، وهم حيارى متصنعة ، مدخولون
متشبهة ، يحسبهم الجاهل أدلاء ، وهم عمي حيارى ، فإننا لله وإننا
إليه راجعون .

واعلم أن العز والتعزز بغائب قادم عليك ، فتريد التحرز منه ،
والامتناع عليه ، ولكنه شيء قد حل ونزل وتمكن من المنزل ، واستوى
وجلس في صدر المجلس ، وأخذ منك أخيرك ، وغلب أخير موضع
فيك ، واتكأ على متكئه ، واستخدم أعوانه بما يوافق هواه في إقبالهم
وإدبارهم .

وإن لم تكن تراه فيه غديت ، وبه تريبت ، وعليه نشأت ، وإياه
تعودت ، وإنما تريد مفارقة غذائك وعادتك ، فكما أنه داء له أصل
وفروع ، فكذلك دواؤه له أصل وفروع .

ولا أكثر عليك من صفات فروع دوائه فتمل وتعرض ، ولكن
أدلك على الأصل الذي إذا عالجته أتى على الأغصان كلها ، وهو :
الاياس من جميع المخلوقين أن يكونوا يضروا أو يتفقوا ، أو يعظوا
أو يمنعوا ، أو يحبوا أو يهينوا ، فالزمه قلبك ، فإنه أصل الأصول ،
ورأس الأمور وسنامه .

فإن كنت تريد صادقا تحب النظر في عواقب الأمور ، فاغلق
عن نفسك باب الطمع ، وافتح لها باب الاياس ، وانفرد لذلك بارادتك
كلها ، وتجرد في طلبه ، كالذي ليس له من حوائج الدنيا كلها إلا حاجة
واحدة ، وتعزم عزماً صحيحاً على أن تهب نفسك لله في بقية عمرك ،
إن كنت تراه لذلك أهلاً ، سبحانه وتعالى ، ما أغناه عن أهل السموات
وأهل الأرضين ، وما أشد اضطرابهم إليه .

فاجعل يا أخي نفسك كهينة الأسير في أيدي أهل زمانك أيام حياتك ،
في اتباع مرضاة الله عز وجل ، والتخلص من بلية العز ، فإن الأسير

ملوك لا يملك ، ولا بطمع أن يظلم أحداً ، ولا ينصر من ظالم ، ثم تجد حلاوة طعم ذكر الله ، ولذاذة المناجاة في عبادة الله .. وإنما قلت لك : استخراج العز وقطعه عن قلبك باليأس من الناس ، لأنه يردك إلى الله ، ورجوعك إلى الله سيكون قلبك عليه ، وفي سيكون قلبك عليه الازدياد من طاعته ، والوصول إلى خاصية عبادته ، وفي الوصول إلى خاصية عبادته النزول عند درجة العبيد ، وفي النزول عند درجة العبيد اصابة شرف العبودية ، وفي اصابة شرف العبودية اكتساب القلب المذلة ، المناقض للعدم أمر يصدق على جميع الموجودات ، وحقيقة الحق سبحانه وتعالى لا توجد في شيء سواه ، فالعلم بكونه موجوداً ليس علماً بحقيقة المخصوصية . وأما علمنا بكونه ليس جوهرأ ولا عرضأ ولا جسمأ فهذا علم بعدم هذه الأشياء ، وليس علماً بحقيقته ، لأن حقيقته ثابتة متحققة ، والسلب لا يكون نفس الثبوت ، فثبت بمجموع ما ذكرنا أنه لا سبيل للعقول إلى معرفة حقيقة الله سبحانه وتعالى .

وما يحقق ما ذكرنا أن العقلاء اتفقوا على أن كل صفة شاهدها الحس ، وأدركها العقل في المكونات ، فلو وصف أحد بها الحق صار جاهلاً ، فأذن لا طريق له إلى معرفة الحق إلا بنفي كل ما عرفه ، ولهذا اتفقوا على أن أحسن كلمة قيلت في التوحيد ما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه هي : أن تعرف أن كل ما يتصور في ذهنك فالله سبحانه بخلافه .

ثم قال المحققون : لما كان كل ما يتصور في ذهنك فالله بخلافه ، فلو تصور في ذهنك من ذلك الخلاف شيء فالله تعالى بخلافه ، ثم لو تصور في هذه المرتبة الثانية أمر آخر لزم نفية ، فلم يبق للعقل في طريق معرفة الله سبيل إلا أن ينفي كل ما يقع في خاطره ، ثم إذا وقع من هذا النفي شيء اشتغل بنفيه أيضاً ، وهكذا في النفي الثالث ، والنفي الرابع إلى ما لا نهاية . فلو نفى أبد الآبدين ودهر الدهرين لكان مشغولاً بهذا النفي ، وإذا كان الأمر كذلك بقي الحق منزهاً لواحق الفكر ، وإشارات العقل ، وعلائق الضمير .

الحجة الثانية :

وهي أن الانسان عاجز عن معرفة نفسه . فإن قيل : ان نفسه هي هذا الهيكل المشاهد فهو باطل من وجهين : الأول : أن الانسان قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلاً عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة ، والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم ، والثاني : أن ذاته من أول عمره إلى آخره شيء واحد ، وأجزاء بدنه من أول عمره إلى آخر عمره غير باقي ، والباقي مغاير لغير الباقي . فثبت أن الانسان ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس .

ثم بعد هذا يحتمل أن يقال : إنه جسم في داخل الهيكل ، أما في القلب فقط ، وأما في الدماغ فقط ، أو يكون مساوياً في كل البدن ، ثم ذلك الجسم أهو من جنس الأجسام التي تولد البدن عنها ، أو هو جسم مخالف لهذه الأجسام في الماهية والحقيقة . ويحتمل أيضاً أن يقال : أنه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز ، بل هو مدبر لهذا البدن على ما يقوله الفلاسفة .

واعلم أن هذه الاحتمالات بقيت من الزمان الأقدم إلى الآن ، وبعد ما زالت الشكوك والشبهات ، ولا شك أن أعرف المعارف في المشار إليه بقولي : أنا . فإذا كان هذا حالي في معرفة أظهر الأشياء ، فكيف يكون حالي في معرفة أبعد الأشياء مناسبة عن علائق العقول وروابط الخيالات .

وتحقيق الكلام فيه : أن العقل كالشمع ، ولا شك أن كل ما كان أقرب إلى الشمع كان ضره أكثر مما بعده عنه ، وأقرب الأشياء إلى الشخص نفسه . فإذا كان نور العقل أضعف من أن يبصر ذاته فكيف يدرك حضرة الجلال مع بعده عنها بغير نهاية .

واعلم أنه كما وقعت الشبهات المذكورة في معرفة النفس فقد وقعت أيضاً في معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان ، وتخبر الخلق أن القوة الباصرة كيف تبصر بحصول الشبح أو بخروج الشعاع ، وكذلك

البحث عن القوة السامعة والقوة الذائقة ، وتحيروا أيضاً في البحث عن كيفية التخيلات ، فإن هذه الصور المتخيلة إن لم يكن لها وجود أصلاً فكيف يكون حصول التمييز والتعيين فيها . وإن كان لها وجود فهي قائمة بأنفسها ، أو كلها شيء مجرد ، أو محلها جسم ، والكل محال ممتنع .

ولما كانت معرفة الخلق بهذه الأمور الظاهرة الجلية بلغت حداً من الصعوبة إلى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم بمن تقدر عن مناسبات العقول والأفكار ، وتنزه عن مشابهات الخيالات والأنظار .

الحجة الثالثة :

العقل لا يتصرف إلا فيما يكون في زمان أو مكان ، لأن كل ما أدركه فإنه يدركه في الماضي أو في المستقبل أو في الحال ، وكل ذلك تحت الزمان ، وكل ما يتصوره فإنه إنما يتصوره إما ههنا أو هناك ، وكل ذلك بحسب المكان . وإذا قلت أن الله سبحانه بخلاف هذه الأشياء فمعرفة هذه المعرفة ليس إلا نفى ما عرفته وتصورته .

فالخاصة فيه نفى غير الحق ، ونفى غير الحق لا يكون هو عين وجدان الحق .

(تم الكتاب بحمد الله وعونه)

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٧	الفصل الأول : في أسرار كلمة « لا إله إلا الله »
٣٢	الفصل الثاني : في فوائد كلمة « لا إله إلا الله » .
٤٤	الفصل الثالث : في أسماء كلمة التوحيد
٧٣	الفصل الرابع : في الأشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد
	الفصل الخامس : في شرح المباحث المتعلقة بكلمة « لا إله إلا الله » ...
٨٩	وهي وجوه
١٠١	الفصل السادس : في فضل للمؤمن
١١٦	الفصل السابع : في الأحكام الفقهية المتفرعة على قولنا « لا إله إلا الله »
١٢٤	فصل في أن عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى
١٢٧	طلب الآخرة وترك التزبد في الدنيا
١٣٠	الخوف والحزن
١٣٢	مراقبة القلب
١٣٦	العدل والفضل
١٣٩	التطهير والعمل
١٤٤	البلوى والاختبار
١٥٥	التوبة وحسن الظن بالنفس
١٦٠	الملح والذم
١٦٧	اليقين والعز